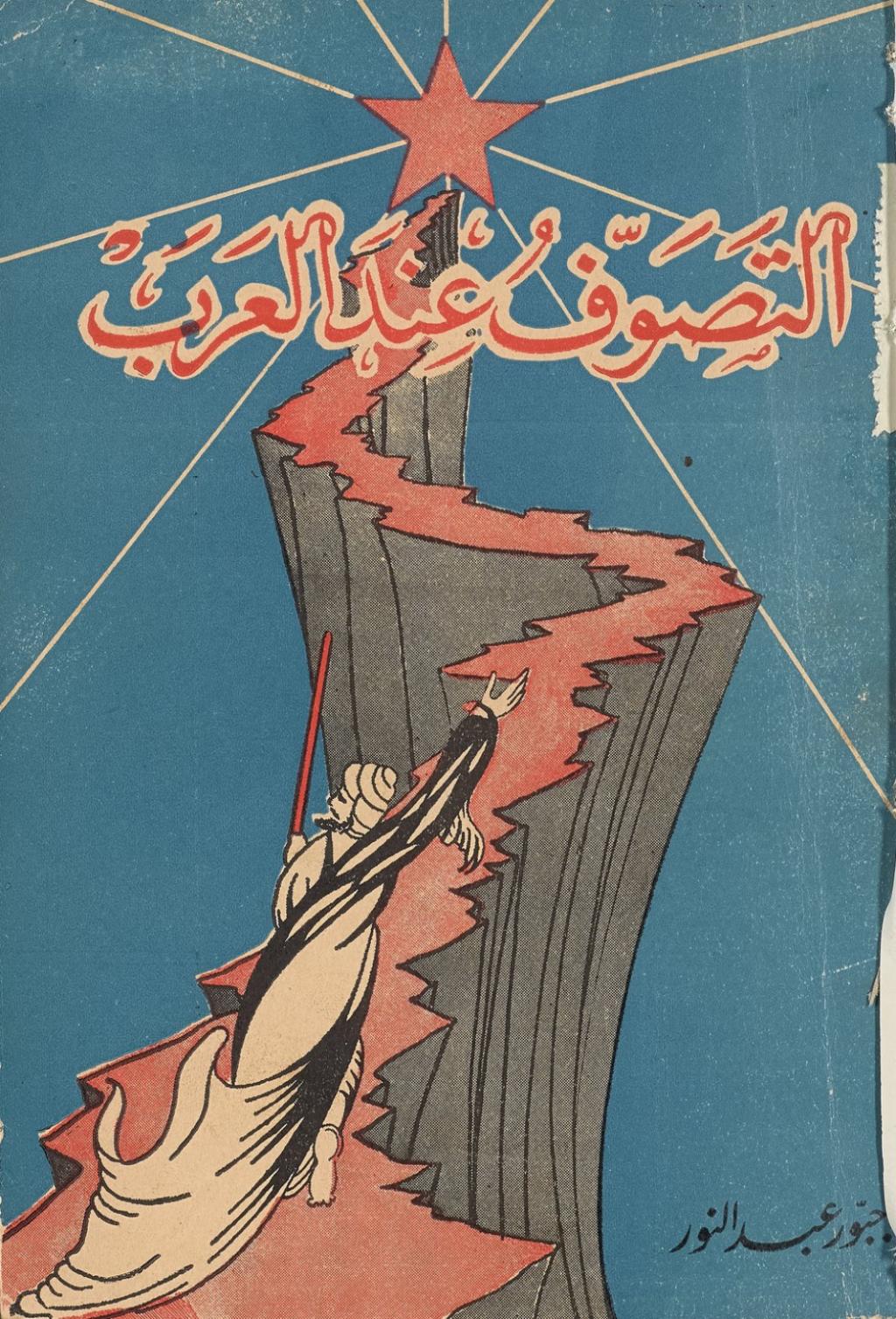


الْمُصْوَفُ عَلَى الْعَرْبِ



جَوْرِ عَبْدُ النُّورِ



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

بیروت
1938

المقدمة

بقلم الفيلسوف اندركي المصوّف الدكّنور رضا توفيق

طالعت هذا البحث بعناء في اول الامر عندما قدمه لي صديقي جورج الكفورى ، ثم تعرفت بعد ذلك شخصياً الى الاديب جبور عبد النور فامضينا معاً ساعتين طريفتين في منزلي على كتف البحر ، نتحدث عن فلسفة التصوف و اخبار الاولياء .

وانى لابدأ كلامي هذه بتهنئة هذا الاديب الناشي ، امام قراء العربية ، لما بذله من اهتمام في اخراج هذا الكتاب الذي يجمع في صفحاته القليلة تاريخ التصوف الاسلامي . فان من ابرز ميزاته انه يلخص بجلاء ووضوح المذهب الصوفي العربي الاسلامي . وانى انصبح بنوع خاص الشبيبة الراقية في الاقطار العربية بدراساته ، لانه يوقفها على بعض نواح من تراث اجدادهم الذين اناروا ظلمات العالم بنور هديهم طوال القرون الوسطى .

قام المؤلف بكتابه تاريخ الحركة الصوفية بكثير من

الدقة والامانة، فلم يحازب رأياً على آخر، ولم يشاعر مذهبًا ليهدم مذهبًا يخالفه. وإنما درس ووازن واستنتج استنتاجاً لا اثر المتشيع فيه، وهذا ما يشعر به القاريء في جميع اقسام الدرس. وما يزيد في قيمته ان المؤلف قد صرف عنایته الخاصة في مراجعة النصوص الاولى في تاريخ التصوف، فوقف على مؤلفات الشهيرستاني والقشيري والشهروري والغزالى وكولد فزهير وماسينيون وكاراده فو وسواهم من مشاهير المؤرخين الذين عنوا بتدوين اطوار الفكر الاسلامي عامه والعربي خاصة وقد ساعده هذا على تفهم الاسس العميقه التي قامت عليهما التزعات الصوفية المختلفة الاهاوا، والاهداف والمذاهب . واخرج كل ذلك في الواح طريفة طلية .

وخصص بعض مقاطع لتحليل شخصيات مشاهير المتصوفين كبوذا وابوهيم بن ادhem وابن الفارض والغزالى ، قد تكون رسوماً ناطقة لوضوح خطوطها واقتصرها على المهم، واستثنائها عن الافاضات المملة كما يفعل الرسامون الذين يظرون صورة المرء بكثير من العناية وقليل من الخطوط . فابرز بالجاذب ما تمتاز به هذه الشخصيات ، وانتقد ما تؤاخذ به لا سيما عند ما يتكلم عن تطرف الشيخ الاكبر في مذهبه

الديني ومزجه حب العزة الالهية بحب المرأة في قصائده
العديدة .

اما الغرور الذي اشار اليه عند ابن عربى وابن الفارض ،
فانه يعود كما اعتقاد الى احوال الشطح العصبية التي يمر فيها
شعراء الصوفية . فقد اتفقوا جميعاً كمولانا جلال الدين الرومي
والشاعر التركى المشهور نسيمى - المعجب بالحلاج والذى ازنهى
به الامر الى ان افتش قاضي الشرع بقتله في حلب - وسواها على
نظم القصائد التي ترخر بالغرور والكبرياء .

واعتقد انه من الممكن التجاوز عن امثال مغالاتهم في
شطحاتهم لأن التصوف الذي عالم به مولانا جلال الدين الردمى
وابن عربى ، هو مذهب فلسفى ديني ذوقى ، قائم على النظرية
الحلولية المثالية . ومن أسس هذا المذهب الاعتقاد بقرب الله
وحلوله في كل كائن ، وهذا مما لم تسلم به الديانات الخزيفية ،
ومذاهب اللاهوتية النظرية . وقد نخل رجال التصوف الامام
علي الكلام الاتى : « وما رأيت شيئاً الا ورأيت الله فيه »
الذى يلخص بكلام قليل وجلا ، كثیر الحلول الالهي ، لأنهم
يعتقدون انه من الحال التسلیم بقرب الله وجوده في كل مكان

و زمان ، دون التسليم بالنظرية الحلوية . وهذا مما يشبه في وقتنا الحاضر ما يذهب اليه العلماء الطبيعيون من افتراض وجود الاثير الكوني ، لتأويل بعض القوانين العامة ، دون ان يتوصلا الى اثبات حقيقته و وجوده . ونجيب ان لا يغرب عن بالنا ان المتصوف هو قبل كل شيء مثالي ، يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن العالم الحسي ليس الا من وحي الحواس وخداعها . وقد عبر عن ذلك الشاعر الصوفي الفارسي مولانا جامي حيث يقول :

كل ما في الكون وهم او خيال
او عكوس في مرايا او ظلال

ولهذا يعتقد ابن عربي بأنه ليس للموجودات الحسية وجود حقيقي ، بل لها وجود وهمي جعله الله فيها « لا بقيام ذاتي بل باقامة الحق » . وبما ان عالم الشهادة ليس في الواقع الا سراباً خادعاً توحيه اليانا حواسينا ، فاننا نضل عندما نفترش عن الخالق في العالم الخارجي ، لانه من الواجب علينا ان ننصرف الى ضمائرنا ، الى قلوبنا نفترش في زواياها ، فهي اصلاح مكان وافضل له ظهور الحق فيه . فالله هو سر الاسرار ، ونقطة الغيب والموجود المطلق ، الذي لا تحد ذاته ولا تعرف صفاتاته ، ولا يعبر عنه باكثر من لفظة « هو » لانه ليس كمثله شيء في

الموجودات الحسية وغير الحسية.

جاء في القرآن الكريم : « وخلقنا الانسان في احسن تقويم » وجاء في الحديث : « خلق الله آدم على صورته وعلى صورة الرحمن ». وجاء في حديث قدسي : « لا يسعني ارضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن ». فاثبتت كل ذلك لشيخ الصوفية ان الانسان يضم في قلبه سر الله . ودفعت هذه النتيجة للبقة مشاهيرهم الى احوال عصبية تتجلی فيها المغالاة في الاحاديث اللدنية ، والتکلام باسم الخالق ، كما حدث لیزید البسطامي وللحلاج الشهید الصوفي المشهور اللذين كانا يرددان امثال هذا القول المتطرف : « سبعاني ... ما اعظم شأني ... ليس في جبتي سوى الله ؟ أنا الحق ؟ » وهذا ما وقف عنده الشعراء انفسهم كمولانا جلال الدين الرومي وابن الفارض وابن عربي الذين اندفعوا في هذه الطريق الخطرة حتى توصلا الى اقصى ما يمكن ان يتوصل اليه الانسان من الغرور والمغالاة لا شك في ان الصوفية هي المذهب الفلسفی الوحید الذي توصل الى العثور على الخالق باقصر البراهین المنطقية وباسطها ، وجعل الشخصية الانسانية في اسمى درجات الوجود وخصها بالاتصال بالخالق . وهذا سر التصوف الذي يحاول المؤرخون

منذ اقدم المصور الى الوقت الحاضر استشفافه ؟ وتفهم كنهه .
 فان جميع المذاهب الالاهوتية الحرة ، والفلسفات الدينية تتوصل
 في آخر الامر بعد الانتقال من طور الى آخر الى النتيجة القائلة
 بحملو الله في ذات الانسان الكامل ، خليفة الله في الارض ،
 وقطب الاقطاب ، والغوث الاعظم الذي تفني ذاته في ذات
 الخالق ليعود بعد ذلك الى العالم بصورة انسانية ويتصل
 بالبشرية اتصالاً مباشراً ويقودها الى الصراط المستقيم

ولست في حاجة الى ان اعرض للصلات الوثيقة التي تجمع
 بين هذه النظريات والمذهب الافلاطوني المستحدث . فان منبع
 ذلك جلي واضح ، لا يعود الى الاسلام السني بصلة نسب .
 وهذا مما حفز رجال الشرع في كثير من الاقطار الاسلامية
 والعربية الى مناهضة اصحاب البدع الذين دخلوا حلقات
 المتصوفين فعدوا مناهجهم ؟ وخرجوا عقائدها ، وصبغوها
 بالصبغة الفلسفية الدخيلة واصبحوا خصوصاً للدين بعد ان كانوا
 من اصدق المجاهدين في احياء العاطفة اليمانية الرهيبة

لا يساعدني الوقت للافاظة في مثل هذه البحوث الطلية
 ولكنني آمل ان الاديب المؤلف سيتيح لي الفرصة في المستقبل
 للعودة الى مثل هذه الدروس الفلسفية .

النَّرْعَةُ الرَّوْحِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ

ان الشريعة الاسلامية، كسوها من الشرائع السامية والديانات الموحدة، حاولت ان تجعل للمرء حياتين مختلفتين جد الاختلاف : حياة مادية يحيىها في العالم الارضي ، وحياة اخرى روحية معاوية يتسوق اليها ويحن الى بلوغها. ولم تكتف بايقاف المسلم على هاتين الناحيتين فقط بل فضلت الثانية على الاولى ، وجعلت من حياة الدنيا استعداداً لبلوغ مرتبة الكمال التي لا يصل اليها الانسان الا بعد الموت . ولا شك في ان ما ترمي اليه جميع الديانات في هذا التقسيم والتفضيل هو رفع المستوى الاخلاقي عند الشعوب ، وصدم عن الحياة الدينية بعض الصد . فتقىل الشرور والآثام ، وتتصفو القلوب وتتفق في غايتها وتعاون في حياتها لبلوغ الغاية القصوى . وهي اذا ما توصلت الى رفع ذلك المستوى الاخلاقي تتوصل ايضاً الى ارواء النفوس المتعطشة الى حياة مثلي تختلف ما الفتنه في دنياهما الحاضرة

كان الاسلام في شأنه الاولى من اكثرا الديانات حضراً على الحياة العلوية ، وافصحها بياناً في وصف الجنة وما يلاقيه فيها المؤمنون من نعيم وسعادة ولذة ، ولا غاية لها في هذه الصور الشعرية الرائعة التي ترسمها للجنان والمحور والانهار والاطياب سوى تحويل انتظار الناس عما يحيط بهم من حياة مادية ضيقة ينصرفون اليها بكل قواهم ، الى حياة ثانية مشرقة خصوصاً يبلغها الانسان اذا ساعد الفقير وشفق على اليتيم وصدق في اعماله واقواله ، واعتقد ان هناك رباً محاسباً يجازي على الخير وبعاقب على الشر ،

وآمن برسالة النبي العربي

ففي القرآن آيات عديدة ثبتت هذا الرأي ، وتوّكّد لنا ان الديانة الاسلامية قد فضلت الحياة الثانية على الحياة الدنيوية ، وحذرت عليها » وهددت المتعمدين المترفين بالوبيل والثبور . من هذه الآيات قوله :

« ومثل الذين ينفقون اموالهم اب雁اء مرضاه الله وتنبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فاتت اكلها ضعفين فان لم يصبهها وايل فطل والله بما نعملونه بصير (١) » وقوله : « يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاوئنك هم الخاسرون (٢) » وقوله : « انا اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم (٣) »

فهذه آيات بينة الدلالة واضحة الاغراض ، توّكّد لنا ان الرسالة الجديدة قد فضلت الحياة الثانية وازاء هذه الآيات أخرى تحض المؤمن على طلب المعاش والسعى وراء الرزق كقوله :

« يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا الى

(١) سورة البقرة ٢٦٥

(٢) سورة المنافقين ٩

(٣) سورة التنانين ١٥

ذَكْرَهُ وَذِرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا
قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١) » وَقَوْلُهُ : « فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا تَنْكَافِ الْأَ
نْفُسُكُ وَحْرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفُرَ بِأَسْدَ الذِّينَ كَفَرُوا
وَاللَّهُ أَشَدُ بِأَسْأَاً وَأَشَدُ تَنْكِيلاً (٢) » وَقَوْلُهُ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَحْرُمُوا طَبِيعَاتِ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
وَكَلُوا مِنْ أَمْارِزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتْقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مَوْمُونُ (٣) »
وَلِيُسَّ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ شَيْءٌ مِّنَ التَّنَاقْضِ ، لَا إِنَّ الدِّيَانَةَ الْاسْلَامِيَّةَ وَإِنْ فَضَلتِ الْحَيَاةَ
الثَّانِيَّةَ فَهُيَّ لِمَ تُشَرِّكُ إِلَيَّ الْأَبْتِعَادُ عَنِ الْأُولَى وَالْعَكْوفُ عَلَى التَّأْمُلِ وَالْمَزْلَةِ . وَخَيْرُ
مَثَالٍ عَلَى ذَلِكَ حَيَاةُ النَّبِيِّ نَفْسُهُ فَقَدْ كَانَتْ مُزِيَّجًا مِّنَ الزَّهْدِ وَالْتَّحْتَمَ بِهَا
حَلْلَ اللَّهِ

كَانَتِ الدُّعَوَةُ أَكْثَرَ تَعْلِمًا بِالرُّوحِ بِفِي عَهْدِهَا الْمَكِيُّ ، وَكَانَتْ تَحَاوِلُ
أَنْ تُبْرِدَ الْأَنْسَانَ عَنْ جَسْمِهِ لِتُخَاطِبَ فِيهِ الْقُسْمُ الْحَسَاسُ الرُّوْحِيُّ . وَلَكِنْ
الْأَمْنِيَّةُ الَّتِي حَلَّتْ بِهَا النَّبِيِّ لَمْ يَتَعْلَمْ ، وَلَمْ يَقْبِلْ الْمَكِيُّونَ الرِّسَالَةَ الْجَدِيدَةَ ، وَلَمْ
يَقْبِلُوهَا إِلَّا بِالسُّخْطِ وَالشَّتَائِمِ ، لَا إِنَّهَا جَاءَتْ لِتُظْهِرَ الضَّلَالَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَهْبِطُونَ ، جَاءَتْ تَقُولُ لَهُمْ أَنْ حَيَاةَهُمْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ تُرْفٍ وَرَفَاهِيَّةٍ لَا
تَسَاوِي حَيَاةَ النَّاسِكِينَ الْمُتَقْشِفِينَ لَانَّهُمْ يَبْيَعُونَ أَجْلًا بِعَاجِلٍ وَيَفْضِلُونَ قَلِيلًا

(١)	سُورَةُ النَّسَاءِ	٨٤
(٢)	سُورَةُ الْمَائِدَةِ	٨٨-٨٧
(٣)	سُورَةُ الْجَمَاعَةِ	١٠-٩

من نعيم الدنيا على سعادة اخروية لا نهاية لها
 شاءت الاحوال الدينية والاجتماعية ان يهاجر النبي وصحابه الى بئرب
 ورأى اصحاب الامر ان الرسالة لن تنتشر بالحسنى لان المتحضرين واصحاب
 الانساب لن يرضوا عن حياتهم بدليلا ، ولان المتبدى المنقطع الى حياة
 الشفط والغزو والفتوك بالضعف لن يفطن الى العناصر الروحية الجديدة التي
 تحملها في طياتها . فلا بد اذا من طريقة جديدة ، ولا بد من ان تعدد
 الى القوة وغير القوة تذيع بواسطتها التعاليم التي انزلت على الرسول . فاذا
 بالديانة الاسلامية تتتحول من طور الاقناع والجدل الى طور الجهاد . واذا
 بالقوة تقوم مهمتها خير قيام فتجبر المكينين على الاذعان والبدو على الخضوع ،
 واذا بالرسالة تنتشر ، فتهب زوبعة اسلامية تهدم الاصنام وتطلق اسم الله
 ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد على كل شفة ولسان

ان ما نقدر ان ثبته من مطالعة القرآن هو ان الديانة الاسلامية قد
 أدخلت في نفوس العرب ولا سيما الوثنين منهم ، النزعة الروحية التي لم يتعرفوا
 اليها في سابق عهدهم . وكان الجاهليون وخصوصاً العدنانيين ، يكادون
 يجهلون جمع الكلمة ، بخاء الدين الجديد فجعل منهم قوماً واحداً فتياً مستعداً
 للكفاح وفتح البلدان

تطور الدين بعض التطور ، فبعد ان كانت غابة النبي ايقاف الوثنين
 على رسالته وتهذيب نفوسهم وصقل اخلاقهم رأى ان انتصاره الديني يعد له
 مجدآ سياسياً ، وانه يقدر ان يكون الله رسوله وللامامة العربية زعيماً في وقت
 واحد ، ولكنك لم يفطن الى ما سيثوّل اليه امر العرب فيما بعد ولم يتبين له
 ان دعوته ستتشعر بعد قليل من الزمن في بلاد فارس والشام ومصر وافريقيا
 الشمالية . لذلك نراه مطمئن المخاطر في خطبة الوداع التي القاها بين المؤمنين

قبيل وفاته ، فان موقفه بين تلك الجموع هو موقف زعيم قاد قومه الى الفانية التي كان يرمي اليها ، فهو قرير العين يستشهد بالله والناس على قيامه بواجبه حق قيامه . ويوصي الحاج ببعض الوصايا التي لا بد منها تلخص لنا تعاليم القرآن وتحدد للمؤمنين علاقة الفرد بالفرد الآخر والزوج بزوجه والانسان بدنياه : « ايهما الناس انا المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرئ مال اخيه الا عن طيب نفس منه . الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ! » ويقول : « ايهما الناس ! ان دماءكم واموالكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا » وبقوله : « فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تصلوا بعده ، كتاب الله . الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ! » (١)

وقد نقدر ان نأخذ هذه الخطبة خلاصة المدعوة الجديدة ، فنرى انها تonus على اتباع الطريق القوي في الحياة وترك النعرات القبلية الجاهامية والاستعداد للموت . وليس فيها شيء كثير او قليل من الحض على طلب لذائذ الحياة او تفضيل الاولى على الثانية . فالنزعه الروحية التي انبثت في السور المكية المقتنصبة المشبعة بالنفس العلوى انتصرت اخيراً على سوهاها ولم يبق من الغزوات الاسلامية والانتصارات وانتشار الديانة الاسلامية في مكة ويثرب والطائف والقبائل سوى امر واحد هو : انتصار الروح على المادة ولكن العرب لم يكروا باجمعهم صادقين في اعتقادهم الديني . فلم يكدر يذهب النبي الى ربه حتى حاولت بعض القبائل الرجوع الى سابق عهدها ، وكانت حروب الودة ، وكان انتصار لابي بكر عليها ، فاعاد الوحيدة الى

الاسلام . و كان لا يد للعربي من ان تجدهه نفسه بالانتهاض على الدين الجديد عند ما يشعر بالقوة الكافية . لذلك نرى ان مدربى امور الديانة حاولوا صرف الجهود التي كان ينفقها البدوى في غزو جاره في الجاهلية او التي سينفقها في الثورة على الشريعة ، الى الفتوح . فانها الوسيلة الوحيدة التي تجمع بينه وبين جاره ، وتبقىه اميناً لدینه واعتقاده ، فاذا بالجيوش الفاتحة تبدأ بغادرة الجزيرة العربية بعد الانتهاء من الانتصار على اهل الردة في ايام ابى بكر

ولم يكن لهؤلاء الجنود الذين يزبون بلوغ مملكتي الاكاسرة والروم شيءٌ من الانظمة العسكرية التي اتخذوها فيما بعد . فالخلفية لا يعلم عدد الجندي لان الانتظام في الجندي لم يكن من الواجبات ، فالجندي يتکفل بأمر معاشة ، ولا ينال من اجر سوى ما يسلبه ويرجعه بحد سيفه . ولكن عمر كان اكثر تنظيماً للامور ، فبدأت الدواوين في النشوء ، واخذت الجيوش المنظمة في الظهور ، وفرضت لها الارزاق ، فكان الجندي يذهب الى الحرب ثم يعود منها بنظام . ولكن ذلك التطور الذي سار اليه العرب لم يعدل شيئاً من ديانتهم

فظل المؤمنون الحقيقيون على اعتقادهم المتيقن لا يغرنهم المال ولا يخدعهم الجد ، فعاش الخلفاء عيشة السوق والفقراء ، فكان ابو بكر يرتفع من استغلال ملكته وعمل بيده ، وقد ظلل مدة ستة اشهر بعد خلافته وهو على حاله تلك ، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً . فاصبح ذات يوم وعلى ساعداته ابراد وهو ذاهب الى السوق . فلقيه عمر فقال : اين تزيد ؟ قال : الى السوق . قال : نصنع ماذا وقد وليت امر المسلمين ؟ قال : فمن اين اطعم عيالي ؟ فقال : انطلق يفرض لك ابو عبيدة (امير بيت المال)

فلم يذهب اليه قال : افرض لي قوت رجل من المهاجرين ليس بافضلهم ولا او كسهم ، وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئاً رددته واخذت غيره . ففرض له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن (١) . لم يتفرد ابو بكر بهذه الخلة وحده بل شاركه فيها فيما بعد عمر بن الخطاب الذي قتل على نفسه وعياله حتى عاب عليه الناس ذلك . واتبع علي طريق تهمها في الحياة ، واقواله في الزهد وتفضيل الفقر والحضر على الحياة الثانية مشهورة ، لا محل لذكرها

فاذما تطورت الاحوال ، وكان من الضروري صرف العرب الى حياة تستند جميع قوام وجهودم لكن لا يفكروا في العودة الى حياة الجاهلية وما فيها من انقسام واصنام ، فان الاسلام وممثله الرئيسيين لم يتغيروا ولم يتتطوروا فظل امام اعينهم مثل اعلى لا يبلغه الحمد والمال ولا تدركه الشباعه بل توصل اليه حياة الصلاح والتقوى والخلوف من الله . فذا ما بعلي بن ابي طالب يستهل خلافته في المسلمين بخطبة لا ذكر فيها لفتورات العربية ، وانما تحاول ان تبعد المندفعين وراء الترورة الى حظيرة الدين : « . . . فاما ينتظر الناس اخراهم ، انقاوا الله عباد الله في عباده وبلاده ، انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ، واطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، واذا رأيتم الخير فخذلوا به ، واذا رأيتم الشر فدعوه ، واذ كروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض » .

ان كثيرين من العرب قد جمعوا الاموال الكثيرة من الفتوحات والاسلام واخذ هؤلاء يؤلفون طبقة خاصة من الاغنياء ، دينها المال ، وهدفها الحمد الدينوي ، فهي اذا تناقض النزعة الروحية التي بزغت مع الاسلام في مكة

ورافقته في نشأته وانتقاله إلى عهد الخليفتين الأولين . وقد عمد المستشرق المشهور «كولد زهير» إلى احصاء بعض الثروات في تلك الأيام فإذا بها تبلغ الملايين من الدراريم . ولا نظن أن المؤمنين الصادقين قد قابلوا هذا التحول في الغايات بالصمت والتسلیم ، بل حاولوا الثورة على الأغنياء . وانتقدوا الحكومة التي بدأت في جم المال واختزانه لاعداد الجيوش في الحروب والاتفاق على العمال والشرطة . ولا شك في أن حداثة أبي ذر مع معاوية عندما كان واليا على الشام تظهر لنا بوضوح امتعاض الناس من السياسة الجديدة . (١)

فقد تعود المسلمون فيها مفعى المساواة في الثروات بما فرض الدين من الواجبات على الغني لأخيه الفقير ، وتعودوا أن يقتسموا أموال الخزينة لأنها رزق لهم كما أشار إلى ذلك النبي في حياته . وكان أبو ذر — وهو من معاصري النبي — من أكثر الناس صلاحاً وتقى وتفشنفاً ، لا يحب الامساك ولا يميل إلى الادخار ، فنزع إلى الشام مع النازحين ، وكانت وفائه ولاءة لمعاوية . فأغممه مارأه في الوالي من التقدير على المسلمين ، وجمع المال في خزينة الولاية باسم (مال الله) ، لأنه ليس لأحد حق به . بل هو مال القراء المعوزين . فجاء أبو ذر معاوية يجاجه في الأمر ويحاول أن يقنعه بالاتفاق المدخر من الأموال . فلم يذعن الوالي لكتابته ، لأن غايته من المال تغایر غایة الصاحب الصالح . فخرج أبو ذر من مقابلته وهو حائق عليه ، فقام في الشام يقول : يا مشر الاغنياء واسوا الفقراء ، بشر الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يمكلو من نار تكوني بها جيدهم وجنوبيهم وظهورهم !! فما زال في مثل هذا الكلام حق ولع القراء به وبدأوا يظهرون بعض الامتعاض من

الاغنياء و حتى قام هؤلاء يرتفعون امره الى الخليفة عثمان بن عفان ، فاستقدمه الخليفة الشيخ ، و دار بينهما حديث طويل وجداول عنيف حول (مال الله) و (مال الفقراء والمسلمين) و جمع اعراض الدنيا . فقال ابو ذر : لا ينبغي للاغنياء ان يقتنوا مالا . قال الخليفة : يا ابو ذر ، علي اقفي ما على ، و آخذ ما على الرعية ، ولا اجبرهم على الزهد ، و ان ادعوهم الى الاجماد والاقحاد (١) . و يختلف المؤرخون في نتيجة هذا الحوار ، فيزعم بعضهم ان الخليفة نصح لابي ذر في ان يعيش منفرداً مبتعداً عن العالم . وهو يرمي في ذلك الى اقصائه عن الناس لكي لا يثير خواطر فقراء المسلمين على الاغنياء ، ولكي يفسح المجال للحكومة في جمع ثروة تساعدها في الحياة والنمو . ويزعم الاخرون ان ابو ذر نفسه قد ابتعد عن هذه الحياة لأنها تخالف مالفة في عهد الرسول .

و كاننا بابي ذر آخر المسلمين الذين حافظوا على النزعة الروحية التي تقدم الكلام عنها فزالت بزاوهاته ، وطفت حياة الترف على العرب في فارس والشام ومصر ولم تتورع هذه الحياة المادية من غزو الحجاز بعد ان غزا الحجاز بشعلته الدينية الاقطان المجاورة . ولم تكن خلافةبني أمية الا لتزيد الناس ابعاداً عن حياة التقشف والزهد ، وتعتمن في نفسيتهم تعديلاً فتجعل منهم اناساً آخرين غايتهم من الحياة التوصل الى المال وانفاقه على الملاذات والمحون كما نرى ذلك عند الاستقرارية القرشية والعسكرية في الحجاز والعراق ، وسوى الانفاق في تشييد القصور واجراء المياه ، وتحطيم الحدائق ولبس البرود كما نتلمس .

(١) نقل الحادثة ايضاً عبد الوهاب النجاشي — الحلفاء الراشدون

ذلك عند اصحاب الامر في الشام . فكان ذلك العهد عهد انتصار للنزعۃ
المادیة ، وعهد اندحار شديد للغاية التي جاء الاسلام لاجلها
وكان الدين ينتقل من القلب الى اللسان لو لم يحفظ الشعلة الروحیة نفو
ضئيل من الخوارج الذين غالوا في روحانیتهم كما غالوا في نزعهم السیاسیة ،
ولو لم يظهر الحسن البصري الذي احیا الخوف من الحساب والعقاب واعاد
الزهد والتقصیف الى سابق عهده وتزع عنه ما علق به من قدر المادۃ وصلقه
وأعده للمتصوفین

ولا نظن ان جمیع المسلمين في ذلك العهد كانوا قد ذهلا عن واجبهم
الديني ، وان ذهبت احدى الفرق الى القول بان الايمان يتم بالاقرار القلبي
بدون القيام بالواجبات الدينية (١) ولكن الحياة المترفة الناعمة تخدع الانسان
وان كان على شيء كثیر من الايمان والدين . فلا بد من ظهور رجل موهوب
قوی الارادة ، يعزف عن الملاذات ، ويعکف على الدين بشغف ملجن وایمان
صادق ليتزع ما في قلوب معاصريه من استسلام للاهواء ، ولم تجعل الطبيعة
ذلك الا في شخصية الحسن البصري التوبی الاصل — كما يزعم السمعاني—
الدخیل على الدين الاسلامي . فوهبته حجۃ دامۃ ، وفصاحة نادرة ، تزری
بفصاحة الحجاج ، وعقيدة صادقة ، وعلمًا جمیعًا . بجدد عهد الخوف من العالم
الثاني ، ودفع في ذلك نفرًا من الناس المترددین بين الخشونة واللين ، بين
المادۃ والدين ، الى ان يشايعوه ويعکفوا عکوفه على التبعید . فقد استيقظ
بعض جيران الحسن في احدى الليالي عند سماعهم بكاءه . فسألوه : «ما بك؟»
قال أخشي ان اكون قد قلت ما لا يرضي الله ، او سارت قدمای على ارض

نحسنة » . وقد كان يقف بين الناس واعظاً فيقول بلسان الله : « اذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكري . فاذا جعلت نعيمه في ذكري عشقني وعشقته . فاذا عشقني وعشقته رفعت الحجاب يبني وينه ، وصرت معالماً بين عينيه لا يسمو اذا سها الناس . . . او لئك الابطال حقاً ، او لئك الذين اذا اردت باهل الارض عقوبة وعداً ذكرتهم فصرفت بذلك عنهم (١) »

فاذا تمثلنا هذا الرجل البر المؤمن الروحي الذي يمضي ليه في الصلاة وذكر امور الدين ، ومحاسبة النفس وزجرها عن المعاصي ودفعها الى صالح الاعمال وخيرها ، هذا الرجل الذي لا ترى عيناه من مظاهر الدنيا سوى اشباح باهته ، وخطوط مرتعشة ، فكله سمع مرتفع وبصر حديد في الدين . . . وتمثلنا جماهير المترفين الذين يغرقون في الوان لذاتهم الى الصباح بين الكاس والقيان والغناء والاوtar والشعر ، ندرك التطور السريع الذي سار اليه الدين الاسلامي . فليس في هاتين الناحيتين من الحياة شيء من المهاودة والازان ، واما هناك جنون وتدهله بالحياة بكلادان بطبعياب على جميع العقول ، وهناك حفاظة وبقين ييزغت شمسها عند الحسن البصري .

الادب الذي دعـت الى نسـء التصوف

اً — الاقتداء بالنبي :

تألف للعرب مدنية جديدة لاقت الى العربي القديم بصلة ، وتكلـد لولا مظاهر الدين وفروضه ، تكون خارجة عنه لما دخل هذه الحياة الجديدة من عادات اعجمية لم يتعـرـف بها القرآن . فكان لا بد للمحافظين الورعين من ان يـسـفـهـوـاـ هـذـهـ الـاعـمـالـ ، وـانـ يـجـعـلـوـاـ اـبـشـلـ الـاعـلـىـ الـاخـلـاقـيـ الذـيـ يـجـتـذـبـ لـيـسـ فـيـ تقـليـدـ الـفـارـسـيـ اوـ الشـامـيـ ، وـانـماـ فيـ تـبـعـ خـطـىـ النـبـيـ نـفـسـهـ والـاحـتـذـاءـ بـهـ ، وـالـاقـتـداءـ بـاـخـلـاقـهـ وـاعـمـالـهـ وـصـفـاتـهـ ، وـاتـبـاعـ سـنـةـ السـافـ الصـالـحـ منـ التـابـعـينـ وـتـابـيـيـ التـابـعـينـ . وـاـذـ عـرـفـنـاـ انـ هـذـهـ الفـئـةـ منـ الـاـوـلـينـ يـثـلـونـ الرـوـحـانـيـةـ الـاسـلـامـيـةـ اـدـرـ كـنـاـ انـ التـزـعـةـ الرـوـحـيـةـ الـتـيـ رـأـيـاـهاـ فـيـ عـهـدـهـاـ الاـخـيـرـ تـجـمـعـ فـيـ صـدرـ الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ ، قـدـ خـرـجـتـ الـعـالـمـ فـيـ شـخـصـيـاتـ الـمـصـوـفـينـ ، كـأـنـهـ اـرـسـالـهـ ثـانـيـةـ ، وـبـنـوـءـةـ جـدـيـدةـ . فـعـمـدـ الـمـتصـوـفـونـ الـىـ حـيـاةـ الرـسـولـ وـالـمـقـرـبـيـنـ الـيـهـ يـجـيـئـوـنـ مـيـتـهـاـ وـبـعـيـدـوـنـ دـارـسـهـ ، وـبـدـرـسـوـنـ دـقـائـقـهـ وـجزـئـاتـهـ . فـلـمـ يـتـرـكـواـ وـارـدـةـ اوـ شـارـدـةـ مـنـ حـيـاتـهـ الـمـنـزـلـيـةـ وـالـعـامـةـ الاـ وـقـدـ اـظـهـرـوـهـاـ وـاقـتـدـواـ بـهـ . فـدـرـسـوـاـ مـوـقـفـ النـبـيـ مـنـ النـاسـ عـامـةـ وـالـاصـدـقـاءـ خـاصـةـ ، وـعـلـاقـاتـهـ باـزـواـجـهـ وـبـنـائـهـ وـخـدـمـهـ ، وـعـادـاتـهـ فـيـ الزـوـاجـ وـالـطـلاقـ وـالـبـيـمـ وـالـشـرـاءـ وـالـعـقـقـ وـالـاـكـلـ وـالـشـرـبـ وـالـنـوـمـ وـالـصـلـاـةـ وـالـعـفـوـ وـالـصـبـرـ وـالـحـلـمـ وـسـعـةـ الـصـدـرـ وـطـلاقـةـ الـسـانـ وـالـكـرـمـ وـالـزـهـدـ وـالـوـفـاءـ وـالـاخـلـاـصـ . وـصـفـوهـ فـيـ بـسـمـةـ الرـضـىـ وـانـةـ الـاـلـمـ ، وـسـمـوـهـ فـيـ اـقـبـالـهـ عـلـىـ حـيـاةـ وـاخـنـائـهـ اـمـامـ مـلـكـ الـمـوتـ

فكان المتصوفون يعكفون على تلك الخلال فيقارنون بينها وبين شخصياتهم
هيئضون على الخالف ويحيطون الموافق . ونظن ان المحدثين والصوفيين عند ما
عمدوا الى مثل هذه الدروس نزعوا اهاله القدسية التي يرسمها المؤمنون عادة
حول كلنبي او رسول عند ما يتقادم عليه العهد . لانهم لم يدعوا عنصر ا من
العناصر الانسانية الا وقد ذكروه ، فقضوا بذلك على الخيال العامي الشعري
الذى يتناهى بعد تقادم الزمان المسائل الشاذة العالمية ، ولا يذكر سوى
الناحية المشرفة السامية من الذين يحبهم . ونظن ايضا ان النبي نفسه كان ميل
الى مثل هذا ، فلم يرض بان يكون لها ، وانما صرخ للناس اجمعين بانه شر
مشائم ، وانه ليس سوى رسول جاء ليبلغهم رسالة من عند ربه .

وادا اردت مثلا حسيناً على دروس المسلمين لحياة النبي عليك بكتاب
احياء علوم الدين للغزالى فهو كفيل لك بان تكون فكرة صادقة عن هذه
الناحية . فيقول ابو حامد مثلا مردداً كلام المحدثين : (۰۰۰) ويلبس ما وجد
شعرة شملة ، ومرة برد حبرة يمانها ، ومرة جبة صوف ، ما وجد من المباح
لبس . وخلفه فضة ، يلبسه في خنصره اليمين والايسر . يردد خلفه عبداً
وغيره ، يركب ما امكنه ، مرة فرساً ، ومرة بعيراً ، ومرة بغلة شباء ،
ومرة حماراً ومرة يمشي راجلاً ، ومرة حافياً عاربي الرأس بلا رداء او عمامة
ولا قلنسوة . يعود المرضى في اقصى المدبنة . يحب الطيب ، وبكره الرائحة
الرديئة . ويجالس الفقراً وبوا كل المساكين) (۱) . ويقول ايضاً : (و كان
احب الفواكه الرطبة اليه البطيخ والعنب ، وكان يأكل كل البطيخ بالخبز
والسكر ، وربما أكله بالرطب ، او يستعين باليدين جيماً . و اكل يوماً الرطب

في يمينه ، وكان يحفظ النوى في يساره ، فمررت شاة ، فاشار اليها بالنوى ^{٢٧} فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل كل يمينه حتى فرغ وانصرف الشاة)١(.

فإن من الأسباب التي دعت إلى نشوء التصوف إذاً الاقتداء بجحية الرسول وبما أنه آثر الفقر والزهد على الدنيا ، فإن المتصوفين قد فعلوا ذلك وجاروه في نزعته . فقد أدركوا حق الادراك من صفات النبي والأحاديث التي نقلت عنه والآيات القرآنية أن الدين الحقيقي هو في الفقر وليس في الغنى . وقد كانوا يتناقلون حديثاً طريفاً رواه ابن عباس قال : خرج رسول الله (ص) ذات يوم وجبريل معه . فصعد على الصفا . فقال له النبي (ص) : يا جبريل ! والذي بعثك بالحق ما أسمى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيقة . فلم يكن كلامه باسرع من أن يسمع هدة من السماء أفظعته . فقال رسول الله (ص) : أمن الله القيامة ان تقوم ؟ قال : لا ، ولكن هذا اسرافيل عليه السلام ، قد نزل إليك حين سمع كلامك . فاتاه اسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثني بنتائج الأرض وامرني ان اعرض عليك ان احببت ان اصير معك جباراً تهامة زمرداً وياقوتاً وذهبًا فعلت . وان شئت نبياً ملكاً وان شئت نبياً عبداً . فاولماً إليه جبريل ان تواضع الله . فقال الرسول (ص) : عبداً ثالثاً)٢(

فانظر إلى هذه الأحاديث التي عمد إليها المتدينون ليقضوا بعض القضاء على النزعة الدينية التي ترافق نشوء الحكومات وقيام الحضارات وانتشار الاموال

(١) الفرزالي احياء علوم الدين ج ٢ من ٣٢٨

(٢) راجع الاحياء ج ٤ من ١٩٣

وذبوع الرقيق ودخول العناصر الاجنبية .

فعدن ما كان يعمد الماجنوون الى شراهم وقصفهم ولهم يبعدون بها الشقة بينهم وبين دينهم كان المؤمنون الصادقون يعمدون الى حياة الرسول وصحابه فيعيشونها في الناس ويررون عنهم الاحاديث والاخبار التي تحض على الفقر وتنهى عن الغنى .

وكما ثبتت الفئة الاولى في مجونها تعصبت الثانية لدينها ، فاذا بالمدنية العباسية ككل المدنية «مسجد وحانة ، وقاري ، وزامر . ومتهدج يرتفب الفجر ، ومصطباح في الحدائق ، وساهر في تهجد وساهر في طرب . وتخمة من غنى ومسكنة من املاق . وشك في دين ، وامان في يقين . كل هذا كان في العصر العبامي ، وكل هذا كان كثيراً (١) »

٢ — المجنون :

كانت العاطفة الدينية تزداد في بعض الصدور قوة كلما ازداد الناس في عبئهم . واذا بالحياة الماجنة العابثة نفسها تصبح سبباً من الاسباب التي دفعت الى نشوء المذهب الصوفي وانتشاره . واذا بالماجنين انفسهم يختهون حياتهم في كثير من الاحيان بالرجوع الى حياة التقشف والتzed . واذا ما راجعنا حياة كثيرين من الشيوخ الصوفيين الذين اشتهروا بالتقوى واتباع المقامات نرى انهم بدأوا حياتهم بشيء ، كثير من المجنون وانفقوا قسماً كبيراً منها في التهتك واتباع ملذاتهم .

وقد كان هؤلاء المتنعمون المترفون الملاعون في فسقهم وفجورهم يصححون من سكرهم الارضي ويتسامون عن غايتهم في العالم ، فيدركون انها ليست

في الكأس والتقارب من القيان والتتمتع بهن ، لأن هذه اللذة ليست غاية للإنسان ، فهي فانية ذاهبة ، لا تصمد على مرور السنين . فكانوا يندفعون إلى قطب معاً كأس للحياة ، تجذبهم إليه عاطفة خفية في أعماق نفوسهم ، قد تكون الروحية الإسلامية الكامنة في الضمير الرافق ، وقد تكون التعطش اللاهوتي الذي تفترط عليه كل نفس حساسة ، وقد تكون نزعـة فلسفية عميقـة تكونت وقتـ بـعـد تجـارـبـ الحـيـاةـ . فـيـنـتـجـ كلـ هـذـاـ شـيـئـاـ نـدـعـهـ الزـهـدـ تـجـارـةـ وـالـتصـوـفـ تـارـةـ أـخـرـىـ ، وـلـيـسـ بـيـنـ هـذـيـنـ القـطـبـيـنـ الروـحـيـنـ اـخـتـلـافـ كـبـيرـ ، وـأـنـماـ يـفـرـقـانـ فـيـ بـعـضـ المـظـاـهـرـ الـخـارـجـيـةـ كـالـثـوبـ وـالـدـعـوـاتـ وـالـصـلـوـاتـ وـالـاذـعـانـ لـارـادـةـ الشـيـخـ وـالـشـطـعـ .

وقد كانت هذه الفئة التي اهتدت إلى طريق الحق ، وادركت ما بين حيـاتـهاـ الحـاضـرـةـ وـالـسـابـقـةـ منـ فـروـقـ وـتـفاـوتـ كانت تأخذ على عاتقـهاـ مـهمـةـ الـاـرـشـادـ وـالـاصـلـاحـ ، فـيـغـدوـ السـاقـيـ خـطـيـئـاـ ، وـالـفـاسـقـ وـاعـظـاـ ، وـالـقـنـيـ ذـاكـرـاـ لـنـعـمـ اللهـ . وـذـاعـتـ هـذـهـ الحـرـكـةـ (ـالتـبـشـيرـيـةـ) ذـبـوـعـاـ عـظـيـماـ فـيـ اوـاـخـرـ الـقـرـنـ الثـانـيـ الـهـيـجـريـ . فـلـمـ تـقـتـصـرـ الخـطـبـ الـدـينـيـ عـلـىـ الجـوـامـعـ فـيـ اوـقـاتـهاـ الـمـعـيـنـةـ ، وـأـنـماـ تـعـدـتـاـ إـلـىـ الـحـدـائـقـ وـالـاسـوـاقـ ، فـيـقـومـ الخـطـيـبـ فـيـ الجـمـوعـ مـرـشـداـ مـؤـنـباـ النـاسـ حـائـزاـ المؤـمـنـينـ عـلـىـ مـتـابـعـةـ طـرـيقـ الـصـلـاحـ ، مـهـدـداـ بـالـعـقـابـ وـالـجـحـيمـ . فـقدـ حـصـرـ مـحـفـوظـ الصـوـفيـ بـالـكـوـفـةـ ، فـاـذـاـ بـهـ يـقـفـ فـيـ السـوقـ عـلـىـ رـجـلـ يـدـعـيـ السـماـكـ ، وـهـوـ يـعـظـ النـاسـ وـيـقـولـ فـيـ مـعـرـضـ كـلـامـهـ : (ـمـنـ اـعـرـضـ عـنـ اللهـ بـكـلـيـتـهـ اـعـرـضـ اللهـ عـنـهـ جـمـلةـ . وـمـنـ اـقـبـلـ عـلـىـ اللهـ بـقـلـبـهـ اـقـبـلـ اللهـ بـرـحـمـتـهـ إـلـيـهـ (ـ۱ـ)ـ) . وـأـمـثالـ السـماـكـ كـثـيرـونـ .

وإذا اردت ان تتمثل العنصر المحبوفي والعنصر الزهدى الصوفى اللذين
كانا يكعون الحياة في الحضارة العباسية عليك بخطالعة كتاب الاغانى
وطبقات ابن سعد ورسالة القشيري ، وقت القلوب ، فهذه الكتب كفيلة
برسم صورة واضحة للمجان والمتصوفين .

٣ - العلوم والفرق

ولم يكن اثر الفرق والعلوم التي دخلت الاسلام اقل من الترف في التناقض
والدينين حول دينهم . فقد تعلم العربية كثيرون من الروم والهنود والفرس
والسريان وغيرهم . ولهؤلاء علم وحضارة ، خالوا ان يبرزوها الى الوجود وان
يفاخروا العرب بها ويأخذوها سبيلا لكسب العيش واعلاء الشأن . واخذ
العرب يتشوكون الى العلم ، وبدأوا بنظرون الى الكتاب نظرات تتراوح بين
الاعتقاد المتن والاخاذ الصريح . واخذوا يجتهدون في تفسير الآيات تفسيراً
يوافق اعتقادهم في الحياة .

فحدثت في الاسلام فرق تتفق في الاصول وتختلف في الفروع . وشهر
هذه الفرق في اول عهد الاسلام هي: الخوارج والشيعة والمرجئة والمعزلة والسنة .

١ - الخوارج

نشأوا بعد واقعة صفين بين معاوية وعلي وبعد قبول ابن ابي طالب بالتحكيم
وهم الذين ذرروا مكيدة قتلها . فصرعه عبد الرحمن بن ملجم الخارجي .
اما تعاليهم فقد بدأت حول الخلافة في اول الامر . فقالوا يجب ان
 تكون باختيار حر من المسلمين ، واذا اختير خليفة فلا بصلح ان يتنازل او
 يحكم . وليس بضروري ان يكون الخليفة قريشاً . ثم مزجو تعاليهم بشيء .

من اللاهوت وذلك عند تجدبهم اليمان فقالوا : ان العمل باوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من اليمان . وليس اليمان الاعتقاد وحده . فلن اعتقد ان لا اله الا الله وان محمدًا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر .

وتشعب الخوارج الى فرق لكل واحدة منها تعاليم خاصة تمتاز بها عن سواها . منها الاذارقة اتباع نافع بن الازرق والنجدات اتباع نجدة بن عامر والاباضية والصفيرية . وتحولت تعاليمهما السياسية والدينية البسيطة الى نعاليم لاهوتية فلسفية .

ب) — الشيعة :

تعصب علي ، وتزعم انه اولى اهل البيت بالخلافة . ثم تحولت الى اعتقاد جديد كما يرى ابن خلدون ، فاعتقدت ان الامامة من المصالح العامة التي لا تفوض الى نظر الامة ويعين القائم بتعيينها ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام . ولا يجوز لنبي اغفلها ولا تفوتها الى الامة ، بل يجب عليه تعين امام لها ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغرى ، وان علياً هو الذي عينه النبي . ويستشهدون على ذلك باحاديث يطعن فيها غيرهم او يتأولها . فاصبح علي في اعتقادهم وصيًّا — اي اوصي اليه بالخلافة — ومن هنا نشأت عصمة الامام وفضيل علي على الخلفاء الراشدين وجعله في اسماي مكان من الجنة ونظر غالبية الشيعة الى علي كما ينظرون الى نصف الله . فقد روى الشهرياني انهم البوه ، وزعموا انه قد حل فيه جزء المي المحمد بمحسده ، وبه كان يعلم الغيب ، وانه قد يظهر في بعض الازمان . وبعد ان كانت الشيعة في اوطا حزبًا سياسيا يرى في علي الکفأة للخلافة ، تحولت الى مذهب

لا هو في يحتاج الى الدلائل الاخرى والى الفلسفة لاثبات تعاليّمه والنضال
دونها

(ج) - المرجئة

نشأت نشأة سياسية محابدة . ودعى القائمون بها مراجحة لهم مرجحون
الحكم على سبب الخصم الى يوم الحساب . كانوا مسلمين لا يكفرون احداً
ولا ينأثرون حزباً (١) ولا يسفكون دمّاً . ثم تحولوا من السياسة الى الدين
واللاهوت . فقالوا ان الامان هو معرفة الله ورسله . وفي ذلك رد على الموارج
القائلين بالاعمال ايضاً . ورد على الشيعة الذين يعتقدون ان الامان بالأمام
والطاعة له جزء من الامان . فهي تعتقد : « ان الامان عقد بالقلب وان
اعلن الكفر بالاسنان وعبدت الاوثان وزلت اليهودية والنصرانية وعبد الصليب
واعلن التشذيه . فمن مات على هذه الحالة فهو مؤمن كاملاً الامان عند الله (٢) »

د - المعتزلة :

يدعوها المؤرخون ايضاً القدرية . نشأت من القرآن وتأويله عند ما
يتكلم عن الجبر والاختيار . أمسieron نحن ام مخربون ؟ هل نحن الذين نوجد
اعمالنا في هذا العالم فنحاسب عليها في العالم الثاني ، ام انا نسير حسب شريعة
مسنونة ، فلا ذنب لنا نعاقب عليه يوم الحساب ؟

لم يفصل القرآن هذه المسألة بل ازدادت تعقيداً عندما وجد فيه الباحثون
آيات تشعرهم بان الانسان مسير بغير على اطاعة قانون لا يصل اليه ادراكه
ووجدوا فيه آيات تخالف هذه وتظهر لهم ان الانسان حر في تصرفه مسؤوال

(١) كانوا يوالون الامويين سراً

(٢) ابن حزم الفصل

عن جرائمها وآثامها يحاسب في يوم الدين . خازبت الجماعة الرأي الأول والمعزلة الرأي الثاني . ونقدر ان نلخص مذهبهم بما بلي :

اولا : القدرة — ردوا على الذين يقولون ان الله يكتب لـ كل انسان اعماله ثم يعاقبه في الآخرة . فقالوا ان العبد قادر خالق لاعماله خيراً وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً . والله منزه من ان يضاف اليه شر وظلم لانه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً .

ثانيا : — التوحيد — نفوا الصفات التي حاول بعضهم ان يلصقونها بالله و يجعلوا له جسماً كجسم الانسان فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا يعلم وقدرة وحياة . لأن هذه الصفات اذا شاركته في القدم شاركته في الالوهية .

ثالثا : — واتفقوا على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الشفاعة . اذا خرج من غير توبه عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار . ولكن عقابه يكون اخف من عقاب الكفار . ويرجع هذا الرأي الى اساس المعزلة ونشأتها .

رابعا : — واتفقوا على ان كلام الله محدث مخلوق . وعلى نفي رؤية الله بالابصار في دار القرار .

(هـ) — السنة .

واصحاب هذه الفرق هم عامة المسلمين الذين لم يدخلوا التأويل في دينهم ولم يختاروا الفرق الاخرى في الشرح الفلسفية . ولكنهم لم يشاروا على هذه الخطة فتحولوا بعد حين من الزمن الى جدل افلاطون وسقراط ارسطون بناضلون بهما عن الشريعة الاسلامية ويقطعون حبائل الفرق الخارجـة . ويقفون في

وجه الفلسفه

ولا نريد ان نشير في هذه الخلاصة الى النقاط المعدبة التي بحثت فيها السنة ، والى انواع البراهين التي عمدت اليها ، والى اصحابها وتاريخ حياتهم ، كالاشعري والبيضاوي والغزالى . فان كل ما نريد اثباته في هذه الكلمة هو ان السنة نفسها لم تنج من الاثر الاجنبي . فاذا بالنظريات الدقيقة التي امتازت بها الفلسفة اليونانية قبيل سocrates تتغلغل في براهينهم عند ما يريدون اثبات حدوث العالم ، واذا بهم يستعينون في ذلك بنظرية الجوهر الفرد . وبكفي ان نذكر ان السنين المتفضلين او علماء الكلام قد ادخلوا العقل في الاسئلام الدينية ، وانهم اول من قال من المفكرين المسلمين بانقسام الموجودات الى ثلاثة اقسام : واجب ومحكم ومستحبيل . وليس ذلك ليتوصلوا الى برهان ابن سينا القائل ان امكان الوجود صفة تضاف الى مادة ، بل ليثبتوا خلاف رأي الرئيس وليقولوا ان العالم محدث لانه محكم الوجود (فلا بد له اذا من واجب الوجود يكون علة لوجوده) .

.....

أنتشرت كل هذه الفرق وما تفرع منها من ذيول ، وذاعت العلوم الفلسفية في كل مكان ، وأكب الناس بهم على المسائل العقلية لعلهم يتوصلون بواسطتها الى حل الغاز العالم واسراره . فخاف الدينون على دينهم وادر كوا ان العقل اذا سلط على الدين فانه يهدمه ولا يبقى له اثرا ، وبيسوا من صدق الاعيان والتسليم عند ما رأوا السنين انفسهم يهجرون العاطفة لاثبات مسائل الدين بالمنطق والعقل .

فلم اذا لا يؤلف المتصوفون فرقه مستقلة ، امينة للعاطفة ، بعيدة عن العالم الدخيل والمنطق الاجنبي والتأويل المدام ؟ ولماذا لا يؤلفون (فرقه فلسفية) ؟

ولكن ليس لها من هذه اللحظة سوى اعتقاد واحد وهو ان الحقيقة لا يبلغها العقل الانساني الضعيف ، وإنما تبلغها عاطفة كامنة في اعمق الصدر ، قبس من الروح الكلي يحاول الرجوع الى مصدره الاول حيث الحقيقة ساطعة كالفجر .

قد يكون هذا ، وقد يكون غير هذا ، لأن المتصوفين انفسهم لم يؤلفوا فرقمة واحدة ، وإنما كانوا جماعات عديدة مختلفة الاهواء متباعدة الغايات ، منها المؤمنة الصادقة ، ومنها الزندقة المفلسفة ، ومنها المداهنة الخداعية ، ومنها السياسية المختكة المحتالة التي تتقنع بالتصوف لتبلغ مآربها السياسية كما سترى ذلك في فصل آخر

ولكنتنا لا نقدر ان نمر بنشو الفرق وتطورها وانتشارها واهدافها دون ان نشير الى شيء قد يبدو غريبا ل الاول وهلة . فما الذي يعنيه مثلا من القول ان الشيعة كانت منبعا للتصوف ، وان اكثر الصوفيين هم شيعيون علويون ؟ ان المسلمين انقسموا في القرن الاول المجري الى قسمين كبيرين رئيسيين : السنة والشيعة . ولا يزال هذا الانقسام الى يومنا الحاضر ، ولن يزال الى آخر الدهر . فان الشيعيين نشأوا على حب علي كما تقدم ، وشاءوا ان يجعلوا في ولده ما ضيعبه في حياته . فنشأت نظرية الامام المنظور والامام غير المنظور الذي يحمل المعنى الحقيقي للكتاب ، وكانوا يأملون بقلب الحكومة الاموية واعطاء صاحب الحق حقه ، فلم يوفقوا في مهمتهم ، وإنما كانوا ينتقلون من محنة الى أخرى ، ومن اضطهاد الى اضطهاد آخر ، حتى اصبحت المسكونة والشقاء من خصائص آل علي تدل على صدق نسبهم ونبل اروائهم . ولكنهم لم يأسوا بل ثابروا في جهادهم السري حتى خلعوا الاموبين ، وقاد الدهر ببسملهم اخيراً لو لم ينسبوهم اولاد العباس الى اربعة الخلافة مدعين

«نهم الوارثون الشرعيون» **الحمد بن الحنفية بن علي** . فعاد الملعوبون الى النواح والانتظار ورد النبائل عن صدورهم يريشها لهم العباسيون بعد ان كانوا الساعد الاین لهم في هدم الحكومة الاموية

وقف الشيعة عندئذ وفي صدورهم نزعاتان مختلفتان : منهم من يئس من الوصول الى ازهاق الباطل واحقاق الحق فاثر الزهد والتقصيف والتضوف ، ومنهم من لم يشعر بالوهن فظل مثابراً على عزمه ، فأنشأ الجماعات السرية «العديدة» التي ترمي في ظاهرها الى غرض ديني او علمي ، وفي باطنها الى نصرة احفاد علي

فاما انعمنا النظر في اكثـر الفرق والنحل التي نشأت في الاسلام نرى ان النواة التي تألفت حولها تكاد تكون واحدة : هي التشيع . ولا شك في ان اكثـر هذه الفرق نظاماً وتقيناً وتقىـة هي جمـية اخوان الصـفاء التي تم انتظامها وبلغت اوجها ونضجت فـكرتها في منتصف القرن الرابع الهجري . فـكان هذه الجـمـية رغم ما تـدعـيه من ان غـابتـها هي نـشرـ العـلـومـ وـتـنـوـيرـ العـقـولـ وـوـايـقـافـ الشـيـابـ عـلـىـ حـقـائـقـ الـاـمـورـ فـهيـ دونـ شـكـ عـلـوـيـةـ شـيـعـيـةـ تـرجـيـ الىـ غـرضـ سـيـاسـيـ هـدـامـ .

وان الذي يرجع لـديـنـا اـثـرـ الشـيـعـةـ فيـ الصـوـفـيـةـ هوـ ماـ نـزـاهـ بـيـنـهاـ منـ شـبهـ عـظـيمـ . فالـاـولـىـ تـعـقـدـ بـالـاـمـامـ الـذـيـ يـحـمـلـ الـحـقـيقـةـ ، والـثـانـيـةـ تـؤـمـنـ بـالـقـطـبـ الـذـيـ يـعـرـفـ سـرـ الـاـسـرـارـ . وـقـدـ تـغـيـرـ اـبـنـ غـربـيـ فيـ الـدـيـوـانـ الـاـكـبـرـ بـهـائـينـ الشـخـصـيـتـيـنـ الـلـتـيـنـ تـكـادـانـ تـؤـلـفـانـ شـخـصـيـةـ وـاحـدـةـ . وـكـلـ مـنـهـاـ آثـرـتـ فـيـ غالـبـ الـلاـيـانـ الزـهـدـ وـاخـفـاءـ اـمـرـهـاـ عـنـ الـعـامـةـ .

٤ - الرهبانية المسيحية :

عند ما خرجت الرسالة الاسلامية من مهدها وانتشرت في الشام وفارس كانت المسيحية قد تقدمتها بقرون . وكانت العاطفة الدينية قد تغلقت في الصدور فبدلت النفوس والعقول ، وزرعت في السوريين خاصة حب الجدل اللاهوتي والحوار الفلسفى ، فقامت المساجلات الكلامية وغير الكلامية بين اصحاب الطبيعة الواحدة واصحاب الطبيعتين ، واصحاب المшиئة الواحدة في طبيعتين . وانقسم المسيحيون الى فرق كما انقسم المسلمون فيما بعد ، ودخل المسيحية مزيج من مذاهب اليونانيين والاسكندريين كما دخل ذلك ايضاً الاسلام في الحضارة العباسية .

وكانت نتيجة هذا الانقسام تحول كثيرين من رجال الدين الورعين الذين يدركون ان امثال هذه المخاورات لا تروي غليلها ولا ثبت يقيناً الى حياة التقشف والزهد . فقامت الاديار في القرن الخامس المسيحي في مصر ثم انتشرت تلك النزعة الرهبانية انتشاراً عظيماً في الاقطاع العربية ، في جميع اقسام سوريا وفي العراق وحدود فارس . فإذا بيوحنا الافامي (القرن السادس) يروي لنا انه ثقف العلوم ووقف على امور الدين واخذ السيرة الرهبانية في احد الاديار العديدة التي قامت قرب المهر العاصي . فعاش ورعاً منقشقاً والفال ثلاثة كتب في التدبر الروحي واميل النفس والكمال (١) . أما اديار فارس فهي شهيرة ، ولكن أشهرها ماروتا « Marouta » . فكان ينزله المسافرون ، وبقصده المرضى للتداوي ، وبعيش فيه الرهبان

مُنْزَهَدِينْ قَانِعِينْ بِالْقَلِيلْ . وَقَدْ حَاوَلَ الْأَغْنِيَاءِ الْأَقْتِدَاءِ بِالْمَلْكَةِ شِيرِينْ فَبَنَوْا كَثِيرًا مِنَ الْأَدِيَارِ . فَقَامَ قَرْبَ قَرْيَةِ مَارُوتَا دِيرَ مَارُ صَمْوِيلُ وَفِيهِ أَرْبَعَونَ رَاهِبًا . وَعَلَى مَقْرَبَةِ مِنْهُ قَامَ دِيرُ نَارْدَاسُ « Nardas » وَفِيهِ سَبْعُونَ رَاهِبًا (١) لَمْ يَنْقُطْعْ هُؤُلَاءِ الرَّهَبَانُ عَنِ الْعَالَمِ تَامَ الْانْقِطَاعِ ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْشُونَ الْمَدَارِسَ وَيَذْبَعُونَ عَلَى الْعِلُومِ بَيْنَ الْجَهَالِ . وَالْكُنْ ذَلِكَ لَمْ يَنْعُمْ عَنِ حَيَاةِ التَّقْشِفِ فَكَانُوا يَصُومُونَ وَيَقْسِمُونَ بِوْمِهِمْ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ يَخْتَمُونَ كُلَّ قَسْمٍ مِنْهَا بِالصَّلَاةِ وَيَنْهَضُونَ عَنِدَ مِنْتَصِفِ الظَّاهِرِ وَعَنِدَ الْفَجْرِ لِلصَّلَاةِ كَمَا يَفْعُلُ الْمُتَصَوِّفُونَ . يَقْوِمُونَ بِكُلِّ ذَلِكَ بِإِيمَانِ صَادِقٍ فَيَضْرِبُونَ إِلَى اللَّهِ وَعِيُونُهُمْ مَغْرُوفَةٌ بِالدَّمْوَعِ وَكَانَتِ الْأَخْشَابُ الَّتِي يَرْكَعُونَ عَلَيْهَا مَحْفُورَةً لِكُثُرَةِ سُجُودِهِمْ وَتَضَرُّعِهِمْ . وَقَدْ نَجَدَ بَيْنَ هُؤُلَاءِ مِنْ يَضْيقُ بِهِ الدِّيرِ فَيَغَادِرُهُ إِلَى الصَّحْرَاءِ تَائِهًا لَا يَحْمَلُ شَيْئًا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا ، يَقْتَاتُ مِنَ الْأَعْشَابِ الَّتِي يَصادِفُهَا فِي طَرِيقِهِ أَوْ يَنْتَظِرُ حُورَوْ غَرِيبَ يَشْفَقُ عَلَيْهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ امْرِهِ جَاءَ الْإِسْلَامُ فَإِذَا بِهِ يَرِى الْأَدِيَارَ قَائِمَةً ، وَالرَّهَبَانَ مُتَوْحِدِينَ يَضْرِبُونَ إِلَى رِبِّهِمْ وَيَبْيَعُونَ دِنِيَاهُمْ بِنَعِيمِ آخِرِهِمْ . فَهُلْ نَقْدَرُ أَنْ نَقُولَ أَنَّ التَّصُوفَ الْعَرَبِيَّ . لَمْ يَتَأْثِرْ بِهِذِهِ النَّزَعَةِ الرَّهَبَانِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ؟

نَرِيدُ أَنْ نَعْتَقِدَ بِهِذَا التَّأْثِيرِ وَأَنْ سَلَمَنَا أَنَّ التَّصُوفَ اسْلَامِيَّ فِي نَشَأَتِهِ . فَأَثَرَ فِي مَظَاهِرِهِ فِي أَوَّلِ امْرِهِ بِالرَّهَبَانِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، فَإِذَا بِالْجَمَاعَاتِ تَنَافَلْ ، وَالْتَّكَابِيَا تَشَادْ ، وَالْمُتَصَوِّفِينَ يَنْفَرُونَ إِلَى افْسَهِهِمْ . وَإِذَا بِالْمُسْلِمِ يَصْلِي أَكْثَرَ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ دِينِهِ ، وَإِذَا بِهِ يَنْهَضُ فِي الظَّاهِرِ وَيَتَهَجَّدُ وَيَبْكِي عَنِدَ ذِكْرِ اللَّهِ .

شوقا اليه او خوفا منه . وسنرى في فصل اخر الاثر المسيحي في التصوف
العربي .

· · · · ·

ان ما نريد ان نتوصل اليه في هذا الفصل هو ان التصوف عديد المذاهب
والاغراض . منه ما كان تمثلا بحياة النبي والصحابة ، ومنه ما كان ردا على
تعزف الحياة ومحونها . ومنه ما كان طريقا واضحا للبلوغ الحق بعد ان تشعبت
الطرق وتناقض المتكلمون والمتفلسفون وضلوا سوء السبيل . ومنه ما كان شيئا
في اذعانه للأمر الواقع او في ثورته الصامدة على الدولة العباسية . ومنه ما
كان اقتداء بحياة الرهبان المسيحيين .

ولكن هذه العناصر العديدة والمذاهب المتفرقة لم توجد مذهبها صوفيا
واحدا واما كانت اسبابا لنشوء فرق وجماعات عديدة . اما افضلها واقربها الى
الدين الصحيح فهي التي نشأت عن السبب الاول وقامت على العاطفة الدينية
«الحسامة» وابتعدت عن الماده وتظهرت بالاخلاق الحسنة . (لان هذه الفتنة
تعتقد ان كل علم لا يوافق الكتاب والسنة ، وليس مستفادا منها او معينا
عليّ فهمها او مستندا اليها فهو رذيلة) .

عناصر التصوف

١ - العنصر الإسلامي

كان المتصوف اذاً مسلماً ، يأخذ من القرآن غذاءه الروحي ، ويقر بالاصول الدينية ، ويسلم ان لا اله الا الله وحده ، وان محمدآ عبده ورسوله ، ويقوم بالصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . وقد أقر جمِيع المتصوفين بار كان الایمان . وهي الایمان باسماء الله وصفاته وكتبه وانيائنه والملائكة والشياطين والجننة والنار والبعث بعد الموت ، والایمان بجميع اقدار الله ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها (١)

فليس من سبيل اذاً للباحثين الذين يحاولون ان يعيدوا النزعـة الصوفية الى غير الدين الاسلامي وان يجعلوا من التصوف مذهبـاً ككل المذاهب تأثـر بالدين الاسلامي واتخذه رداء يبرز به الى العالم فيخلب لب رجال الدين ويتوصـل الى ارضائهم بما يحمله في ظاهره من تقوـى وصلاح فـان هذه النظرـة الغـريبة مخطـئة لا تـقوم على اساس تاريخـي او درسـ حـقيقـ ، لأن التصوف العربي الاسلامـي ، كما اثبتنا ذلك في كلـة سابـقة ، قـام على الروحـية المـدينـية التي تـأثرـت بـعوـامل عـدـيدـة وـقـفـنـا عـلـى بعضـها وقد ظـهرـ لنا ان التصوف نـشـأ رـداً عـلـى ما دـخـلـ الـاقـطـارـ العـرـبـيةـ منـ مـذاـهـبـ خـيـلـةـ لا يـقـرـ بهاـ الـكتـابـ تـخـتـلـفـ مـناـجـهـاـ عـنـ مـناـجـقـ الـقـرـآنـ . ولـكـنهـ لمـ يـقـدرـ

(١) راجـعـ اـباـ طـالـبـ الـكـيـيـ : قـوتـ القـلـوبـ جـ ٣ـ مـ ١٩٠ـ ١٩١ـ

ان يظل بعيداً عن تلك السيول الجارفة التي طفت على عقول المسلمين ^٢
فاما بالتصوفين انفسهم اصحاب الایمان واليقين الديني ، اصحاب العاطفة
والمواجد ، يستعينون بوازين الكلندي والفارابي والرازي وابن سينا ليثبتوا
ذلك الموجد وليقروا باعتقادهم بالله وصفاته وقدمه وخلقه العالم

وبعد ان كان المتضوف يقر بوجود ربه لانه يشعر ببرهان نفسي داخلي
يدفعه الى مثل هذا الاقرار ، اخذ الجنيد يقول : « اول ما يحتاج اليه العبد
من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان احدهاته . فيعرف
صفة الخالق من المخلوق ، وصفة التدليس من المحدث ، وبذل لدعوته ويترفه
بوجوب طاعته . فان لم يعرف مالكه لم يتمكن بالملك من استوجهه (١) »
اما ان يعرف المصنوع صانعه فهذا من مبادىء المعرفة الدينية . واما ان
يعرف كيف كان ذلك الصنع ، وكيف تم ويسنتج من ذلك الصفات .
الموافقة للصانع ليتوصل الى سبب برهاني يدفعه الى الطاعة والاذعان والاعتراف .
بقدرة الله ٠٠٠ فليس في هذا شيء كثير او قليل من العاطفة الصوفية ^٤
واما اصبح الجنيد وسواء من الذين يشاركونه في رأيه كعلماء الكلام الذين
اشاؤوا الى الفلسفة الاشرافية فلم يفهموها ، واساؤوا الى الدين لأنهم طبقوا على
مسائله العاطفية مالم يفهموه .

ولكن جميع التصوفين لم يشاركون الجنيد في هذا النوع من التفلسف .
الصوفي الذي نما وتشعب فيها بعد واصبح مذهبا خاصا نعرض له باليجاز عند
دراسة ابن عربي . لان هناك كثيرين منهم ادركون حقيقة العاطفة الصوفية .
وعرفوا انها لا تتفق والبرهان المنطقي والاستنتاج العقلي . لذلك نرى ذا النوع

لعربي يقول عند ما يتكلّم عن التوحيد : (هو ان تعلم ان قدرة الله تعالى في الاشياء بلا مزاج ، وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس في السموات العلا ، ولا في الارضين السفلى مدبر غير الله ، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك)^(١)
 وبين هذين الاستشهادين اختلاف كبير . ذو التون مؤمن مسلم ، والجنيد متفلسف متكلّم .

ولكن المتصوفين عند ما اخذنوا البراهين المنطقية في اثبات اصولهم كانوا يسيرون حسب الطريقة الشرعية التي اتبعها ائمة الدين الاسلامي . فهم اذاً مسلمون مؤمنون عند ما يقولون البراهين فيقدمون المقدمات ليتوصلوا الى النتائج . وهم مسلمون عند ما يبحثون في النقاط الفلسفية التي بحثت فيها الفرق من قبل ومن بعد ، وعند ما يضل بعض مبڑيهم بين عاطفته وعقله ، بين ايمانه وعلمه . وهم مؤمنون عند ما يتوقفون عن عقد حلقات الدذكر ليعقدوا حلقات اخرى للمجادلة والمحاورة والنقض والابرام والازنكار والاثبات والتحرير والتحليل . هم مسلمون عند ما يقولون : (ان الحق سبحانه وتعالى موجود قد يرا واحد حكيم قادر عليه ، فاهر رحيم ، وانه عالم بعلم ، قادر بقدرة ، مرشد بارادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متلهم بكلام حاجي بحياة ، باق ببقاء ، وله يدان هما صفتان ، يخلق بها ما يشاء سبحانه على التخصيص ، وله الوجه الجميل ، وصفاته ذاته مختصة بذاته ، لا يقال هي هو ولا هي اغيار له ، بل هي صفات له ازلية ونبوت مرمدية)^(٢)

(١) الرسالة القشيرية ص ٤

(٢) الرسالة القشيرية ص ٧

فقد بني التصوف اذاً علىَ السنة وسار عليها وتعصب لها ومثل في قترة من الزمان تكاد تبلغ قرناً كاملاً تفتدي من القرن الثاني الى الثالث المجري العاطفة الدينية الصادقة التي لا مهاودة فيها ولا محاباة . فشذ من ازر رجال الدين ، وهاجم المنافقين الضالين ، واعد سلاحاً ماضياً للنضال والجهاد في سبيل دحر الباطل ونصرة الرسالة

وبعد ان كان المؤمن يكتفي بما عين له الشرع من الصلاة والزكاة واعمال الخير ، اصبح التصوف يطالبه يأكلـثـرـ من ذلك ، ويـشـجـعـهـ علىـ اـنـفـاقـ قـسـمـ كبيرـ منـ وـقـتـهـ فيـ الجـلوـسـ إـلـىـ الـكـتـابـ وـمـحـاسـبـةـ النـفـسـ وـالتـأـمـلـ بـعـظـمـةـ اللهـ وـقـدـرـتـهـ .ـ وـاـذـاـ بتـلـكـ النـزـعـةـ الـرـوـحـيـةـ الـخـافـيـةـ تـنـطـوـرـ وـتـنـتـقـلـ منـ عـهـدـ الـىـ آـخـرـ ،ـ وـتـعـلـقـ بـاـلـحـقـقـاـنـ ذـبـولـ وـفـرـوعـ ،ـ وـتـغـدوـ عـبـادـةـ اللهـ وـذـكـرـهـ غـابـةـ لـلـحـيـاـ بـعـدـ انـ كـانـ وـسـيـلـةـ لـبـوغـ الـحـيـاـةـ الثـانـيـةـ .ـ وـاـصـبـحـ كـلـ عـمـلـ اوـ سـعـيـ يـبـعـدـ المـتـصـوـفـ عـنـ رـبـهـ مـكـرـوـهـاـ مـعـقـوـتاـ .ـ فـاـخـذـتـ تـلـكـ النـزـعـةـ بـالـاتـقـاصـ عـلـىـ الـدـيـنـ بـعـدـ انـ ظـهـرـتـ لـسـنـدـهـ وـاحـيـاـهـ .ـ وـاـخـذـ النـاسـ الـعـادـيـوـنـ الـذـيـنـ تـعـادـلـ عـنـدـ حـبـ الـدـيـنـ وـالـآـخـرـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ الـمـتـصـوـفـيـنـ نـظـرـةـ الـمـؤـمـنـ لـلـشـاذـيـنـ الـمـارـقـيـنـ عـنـ الـدـيـنـ .ـ وـرـأـواـ انـ هـذـهـ النـزـعـةـ اـذـ عـمـتـ وـاـنـتـشـرـتـ عـنـدـ جـمـيعـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ قـاضـيـةـ عـلـىـ الـدـيـنـ دـوـنـ شـكـ ،ـ قـاضـيـةـ عـلـىـ السـعـيـ وـرـاءـ الرـزـقـ ،ـ هـادـمـةـ لـنـزـعـةـ الـجـهـادـ الـيـقـيـ تـكـادـ تـكـوـنـ مـنـ فـرـوضـ الـدـيـنـ الـاـسـاسـيـةـ ،ـ وـاـذـاـ بـالـمـسـلـمـ الـذـيـ رـأـيـاـهـ فـيـ عـمـدـ الـخـلـفـاءـ الـرـاشـدـيـنـ يـخـرـجـ مـنـ شـبـهـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـيـةـ يـفـتـجـرـ الـمـهـالـكـ وـيـنـشـرـ فـيـهـ دـيـنـهـ بـقـوـةـ سـاعـدـهـ وـحدـ سـيفـهـ يـقـبـعـ فـيـ الزـوـاـيـاـ مـتـأـمـلاـ ذـاـ كـرـأـ اللهـ حـاسـبـاـ نـفـسـهـ ،ـ مـتـهـلـلاـ مـنـ الـحـبـ ،ـ بـاـكـيـاـ مـنـ الـخـوفـ

خـافـ اـصـحـابـ الـاـمـرـ مـنـ هـذـاـ التـحـولـ فـيـ النـفـوسـ ،ـ فـقـدـ كـتـبـ بـعـضـ الـصـالـحـيـنـ الـاخـرـ لـهـ يـسـتـدـعـيـهـ إـلـىـ الـفـرـقـ ،ـ فـكـتـبـ إـلـيـهـ :ـ (ـيـاـ اـخـيـ كـلـ الـفـغـورـ

مجتمعه لي في بيت واحد والباب على مردوه) . فكتب اليه اخوه : (لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمه اختلت امور المسلمين وغلب الکفار ، فلا بد من الغزو والجهاد) . فكتب اليه الصوفي : (يا اخي ، لو لزم الناس ما انا عليه وقالوا في زوايهم على سجادتهم : الله اکبر !! انہدم سور قسطنطينية) (۱)

وادا بالعربي الشجاع الصليب يتحول الى عابد زاهد هزيل خائر القوي
بكاء ، يکاد بقطع كل وشیحة تجمعه بالعالم الذي يعيش فيه .
فالامتناع عن الجهاد والبكاء والمغالاة في العبادات ، والاکثار من
الفروض ، وبعض النظريات الفلسفية التي اعتنقها المتطرفون كالبساطمي والحلاج
وابن عربي ، كل هذا جعل نفرا ليس بالقليل من المؤرخين يزعمون ان
التصوف غريب الدار في البلاد العربية ، لا يمت الى الاسلام بحسب ، وانه
يختلف الرسالة في باطنها وظاهره ، وذلك ايضا ما دفع المحافظين كالحنابلة الى
اضطهاد اصحاب التصوف واحراق كتبهم وتبعيغ خطواتهم وافشاء اخطائهم
وتهييج الرأي العام عليهم .

ولكن الحقيقة هي ما قاله ابن خلدون في مقدمته عند ما اثبت ان
التصوف اسلامي النشأة والاصل فقال : (هذا العالم من العلوم الشرعية الحادثة
في الملة . واصله ان طريقة هولاء القوم لم تزل عند سلف الامة وکبارها
من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والمداية . واصلها المکوف على
العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد
فيها يقبل عليه الجمور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة)

وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف (١) ٠٠٠
 ولكننا نقف امام ظاهرة غريبة قد لا نجد لها تأويلاً ، وقد تساعده بعض المؤرخين في زعمهم ان اصل التصوف اجنبي ٠ فتفق امامهم وليس لدينا برهان حسي بتجادلهم به ٠ وهي ان المتصوفين الاولين الذين ظهروا في الممالك العربية لم يكونوا عرباً ، واغاثهم افراد ينتسبون في الاصل الى ملل غريبة وفي المولداتي بلاد اجنبية ، وان كثيرين من الذين يرثوا في عهد النصرة كانوا فرساً ٠ فكان ذو النون المصري نوبياً (توفي عام ٢٤٥ هـ) وابو علي الفضيل بن عياض خراسانياً (مات في مكة سنة ١٨٧ هـ) ومحفوظ بن فيروز الكرخي من الموالي (مات سنة ٢٠٠ هـ) ويزعيم المؤرخون انه كان مسيحيًّا ٠ وكان ابو الحسن سري بن المفلس السقطي تلميذ محفوظ وخال الجنيد واستاذه اجنبيةً (مات سنة ٢٥٨ هـ) ، وابو نصر بشر بن الحارث الحافي من مرو (سكن بغداد ومات فيها سنة ٢٢٧ هـ) ، وكان ابو يزيد طيفور البسطامي مجموعي الاصل (مات سنة ٢٦١ هـ او سنة ٢٣٠ هـ حسب رواية ثانية) وكان ابو القاسم الجنيد بن محمد من نهاروند (مات سنة ٢٩٧ هـ) ، وكذلك مشاد الدينورى (مات سنة ٢٩٦ هـ) وخير النساج وابو يعقوب أسحق بن محمد النهرجوري (مات بمكة سنة ٣٣٠ هـ) وهو القائل : « الدنيا بحر ، والآخرة ساحل ، والمركب التقوى ، والناس سفر » ، وابو بكر الحسين بن علي بن يزدانیار ، وابو القاسم ابراهيم بن محمد النصرابازى (مات بمكة سنة ٣٦٩ هـ) (٢)

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٦٧

(٢) راجع الرسالة القشيرية من ص ٧ الى ص ٣٠

لا سبيل الى اسكنار فضل الاعاجم في الحضارة العربية . فكما كان أثراً مبئساً في النواحي الاجتماعية والسياسية ، كان اثراً هم حسناً في النواحي العلمية والفلسفية . فقد كانوا اقرب من العرب الاقحاح ، الى فهم الدقائق الروحية في الشريعة الاسلامية ، لانهم الفوا الحوار في مثل هذه المواضيع . فليس بالغريب اذاً ان يكونوا الاول من فكر باستقلال العنصر الروحي الاسلامي ، واول من انشأ الفرق وساعد على انتشارها لاجل اشباع نهمهم الفلسفي اللاهوتي ، لاجل اسباب اخرى ظهرت عند الشعوبية باجلي ووضوح . ولكن هل أحذثوا شيئاً غريباً ؟ هل ابدعوا علمًا لم يكن له اس في الشريعة الاسلامية ؟ هذا ما لا يقدر احد على اثباته ، لان النواة الاسلامية عربية ، واما احاط بها من مذاهب ونآريل بمثول دخيل

اما العناصر التي ادخلت على النزعة الصوفية فكيفتها وفرعيتها واقتصرت بعض الاقصاء عن الدين ومحفظت الحنابلة على مناهضتها ، فانا نقدر ان نعيدها الى العنصر الفلسفي الاسكندرى ، والعنصر المسيحي ، والعنصر الهندي البوذى .

فاذا مزجنا هذه العناصر الاجنبية الثالثة بالعنصر الاسلامي ، وجعلنا منها مركبات مختلفة الاقدار والنسب ، نتوصل الى فهم معظم الفرق والتزعيات التي حدثت في التصوف الاسلامي عامة والعربي خاصة .

٢ - الفنصر الاسكندرى (١)

كانت الاسكندرية في القرن الثاني للمسيح محطة رجال العلم والفلسفة والدين . وكانت بوقتها تشهد في هاجمها المذاهب والاراء التي ينذرها شرداً واحداً عاماً . فكانت التوراة تقرأ بليونانية وتشرح حسب تعاليم افلاطون ورموزه الشعرية . ورأى الناس في سفر التكوين تتحقق ما دعاه افلاطون بالعالم الحسنى الذي انشق عن العالم المقلبي .

كان آدم يمثل لهم جزءاً من العقل الكلي لأنّه خلق على صورة الله مادحواه تمثيل الاحساسات المختلفة التي خدعت العقل بالظاهر وجعلته بأكل التفاحة ويسقط من مستوى السامي إلى الدرك الانساني . ورؤساء القبائل الكبيرة عند العبرانيين كابرهيم واسحق ويعقوب . يمثلون الطرق الثلاث التي تقود الانسان الى حياة الصلاح وهي : العلم والنعمة الالهية والزهد . وهكذا تعادلت التعاليم اليونانية والافلاطونية والتعاليم الموسوية حتى ذهب علماء التوراة الى ان افلاطون ليس سوى مومن يتكلّم اليونانية ، وهذا ما كان يعتقده فيليون الاسكندرى معاصر المسيح في التوراة ومبادئها

فليست الافلاطونية الحدبى اذهب الاسكندرى سوى مدرسة

وأجمع :

E . Bréhier : Histoire de la phil . p . 419 - 485

J . Simon : Histoire de l'école d'Alexandrie 2 vol

E . Bréhier : la philosophie de Plotin 1922

» » Les Ennéades de Plotin

Robin : La Pensée Grecque .

شأت لتجتمع بين مذهب افلاطون ، المذاهب الدينية الموسوية والبرهانية والذية . فتتحول الفلسفة الاغريقية الى ابحاث لاهوتية لا يقر بها المشائرون والرواقيون ، وتمتد الافلاطونية الحديثة الى وصف العالم النقي وطرق الوصول اليه كما كان يصف ارسطو المحسوسات التي تحيط به ليستخرج من ذلك قوانين عامة تغير الكون بكمله

فتح العرب ابصارهم للعلم فإذا بهم يعثرون على الترجمات التي عمد اليها النسطوريون والسريان وبعض الفرس ، واذا بهذه الترجمات شروح للمذهب الاسكندري ، واذا بالمتضمنين خاصه يرون فيها ذهب اليه فيلون وافلوطين وفوريفوريوس برهاناً فلسفياً يقدرون ان يعتمدوا عليه لاثبات الصلة التي تجتمع بين الخالق والخلق ، بين الصانع والمصنوع . فمكفوأ على درس هذا المذهب وتفنوا في فهمه وتأويله ونمدو به حتى اصبح لكل فرد من المتصوفين مذهب خاص مقتبس عن الافلاطونية الحديثة

فيلون : (ولد في الاسكندرية سنة ٢٠ ق . م)

رغم التعقيد في مذهبه والمزاج الذي قام به بين تعاليم افلاطون والرواقيين والتوراة فاننا نقدر ان نلخص مذهبه بالنقاط الآتية :

- ١ - يعتقد بوجود الله قادر يتصل بالارض بواسطة مخلوقات اخرى تختلف مكانتها بالنسبة الى الدور الذي تقوم به
- ٢ - على رأس هذه المخلوقات وفي الدرجة الاولى توجد الكلمة « Logos » . وتأتي بعدها الملائكة والشياطين . وبواسطة هذه المخلوقات ترتفع نفس الحكيم الى العزة الالهية .
- ٣ - ادخل فيلون على هذه التعاليم الصوفية شيئاً من مذهب الفيشاغوريين

لكي يشرح اختلاف المظاهر في الموجودات . ففي الاصل كان الواحد Un نتطور في ذاته فاجد العقل او الكلمة Logos . ثم تطور العقل فظهرت الروح . ثم حدثت المادة لتكون العالم الحسي ياتصالها بالصورة . بني المذهب الاسكندرى على هذه النقاط . وربما كان افلاوطين ابرز شخصية بحثت في هذه المسائل . فاتم مهمة فيلون بعد ان ادخل شيئا جديدا على مذهبه . وهو الذي نضجت في عهده فكرة الانبشاق والفناء . كما عرفها الفلاسفة الاشراقيون والمتصوفون المتناسفون كابن عربي مثلا .

افلوطين :

(ولد في مصر العليا في عام ٢٠٥ بـ م) وتتابع دروسه على أشهر الأساتذة في الاسكندرية ، وسام في حملة الامبراطور «كورديان» على فارس لكي يتعرف الى مذاهب هذه الامة وعاصمتها . وفي سنة ٢٤٥ م نزل روما حيث بقى يعلم الفلسفة الى موته في عام ٢٦٩ . وكان ذبوع صيته سبب اقبال الطلبة عليه من مختلف الاقطارات ، وبينهم فوريفوريوس امين سره والامبراطور جوليان .

بلشخص مذهبة كما يلي :

- ١ - الواحد هو كل شيء . ولكتنا لا نقدر ان ثبت انه شيء من الاشياء او ان نقول انه كائن او ذات او حياة . فانه ارفع من كل هذا .
- ٢ - لماذا اوجد الله الموجودات ؟ الشوق ام الحاجة دفعاه الى خلق العالم ؟ اكان الانفلاق ام الحب سبب ايجاد المخلوقات ؟ ينفي افلاوطين كل خلق لا بلائم الله في جلاله وعلوه : (الواحد لا يشترط الى شيء) فالشوق

يظهر لنا انه غير نام لانه ليس حائزآ كل ما بطله) فالشوق والحب ليسا اذا السبب في الخلق . ولم يحدث العالم اتفاقا لان ذلك غير معقول ولا يوافق ما نعلمه عن قدرة الله . هل نقدر ان نزعم ان المخلوقات التي وجدت حسب طريقة منظمة كان سبب حدوثها قدر غاشم ؟ او هل حدث الكون من حاجة الله اليه ؟ كلا . فالواحد لا يتأثر بحاجة ، وجميع المخلوقات تحتاج اليه ، وتشتاق اليه .

٣ - من مزايا الكائن الكامل ان يوجد شيئاً يشابهه وان كان احط منه . فانخير المطلق او الله لا يقدر ان يبقى بدون عمل ، فان الانوار تثير الظلمات ، والزهرة عندما تفتح وتتفتح بذورها تقدر ان تكون سبب حياة شجرة صغيرة . والنبع يفجر المياه . والرجل العالم يثقف الآخرين بمحكمته ان الذي يحدث عند هذه المخلوقات السفلی يحدث عند الله . ولكن بين الخالق والمخلوق هوة عميقة ومسافة بعيدة . فالكمال عند المخلوقات ليس سوى شعاع الخير المطلق . فكيف يبقى اذا الكائن الاعظم والخير المطلق محصوراً في نفسه دون ان يعطي الوجود اسواء ؟

٤ - فالعالم لم يبرز اذا من العدم ، وانما هو ولادة جديدة ، هو انشاق او صدور من الله . ولا بد للمخلوق من ان يبقى قريباً من خالقه لكي يتمتع بقربه وبحقيقة تجربته ، ولكي يتأمل بمصدره . وهذا التأمل الذي يحدث عند المخلوق بعد عهده افلاطين : الرجوع او الفناه ، وبقدر المخلوق ان ينوصل الى خالقه بهذه الطريقة

٥ - اول مخلوق يحدث من هذا الصدور يجب ان يشابه الخالق مشابهة كبيرة في كماله . ولكنها يبقى دونه . وهذا المخلوق الاول هو الكلمة او العقل . والعقل يوجد بدوره الروح الكلية . فالروح هي الكلمة المنبثقة من

العقل كما ان العقل هو كلة الواحد . فالواحد والمقل الكلي والروح الككلية تؤلف سلسلة الحقائق الالمية . وبما يلي بعد هذه الانايم الثلاثة اقوم آخر ثنوبي هو المادة والصورة . فالمادة او العالم الحسي مع المكان والزمان تحدث من الروح الكلي كما انبثق الروح من العقل الكلي

٦ - كل مخلوق غير قائم يصدر عن مخلوق اكمل منه يكون المثل الاعلى في الكمال لجنسه . لذلك لا نقدر ان نقول ان النقص في المخلوقات هو شر ؟ لأن كل موجود يحاول بطريقة الرجوع والارتداد ان يعادل في الكمال الموجود الذي جاء منه . من هنا نشأ التساؤل بالحياة . كل شيء ي يأتي من الخير واليه يعود

٧ - كانت الروح الفردية تسكن العالم العلوى حيث تعرفت الى كل شيء ولكنها تحدث بجسم ونفس ثانية مبنية وفيجب ان نفك فيعودها وان نبتعد عن جميع المحسوسات . وعند ما نفعل ذلك نفهم اسرار الطبيعة . واغرب ما في رأي افلاطين وجود روحيين عند كل انسان : روح عائلة تعطي الشخص قيمة ولكنه ليست في الجسم . وقدر ان ترتفع الى المقولات والى الحق المطلق بالانجذاب ، ونفس لا تفكر وغايتها تقتصر على تحريك الجسم . فقد اتخذ المتصوفون هذه النظرية دليلا على صدق دعوام في حياتهم الذهنية وساري ذلك عند كلمنا عن طريقتهم في التوصل الى الحق

٨ - ذهب افلاطين مذهبها يخالف اعتقاد معظم الفلاسفة الاغريقين « فالجسم هو مدفن الروح ، والعالم الحسي كهف ، ووجودنا على الارض حدث بعد جرم اقترفته الروح . » فجعل موضوع الفلسفة معرفة العالم المقللي بعد تطهير الروح والنجذابها . وهكذا اصبح العالم المقللي المرتبة السامية التي تتوصل اليها الروح في الحياة الذهنية بعد ان اعتقاد افلاطون ان تلك

المربطة لا يصل إليها العقل في بحوثه ولا تبلغها الروح إلا في حياة ثانية
 ان الانجذاب الروحاني هو الطريقة الوحيدة التي توصي إلى المعرفة .
 وهذا الانجذاب لا يتم الا عندما تكون في حالة سكر روحاني فتلتزج الروح
 الفردية بالخير المطلق وتدرك اسرار جسم الكائنات . وهذه مرحلة لا تصل
 إليها الا الارواح اوهوية كلامبياء والحكماء بعد محاولات عديدة .
 قال فوريغوربوس : «أني لم اتوصل الى هذه المرتبة الامرة واحدة في حياتي
 عندما كنت في الثامنة والستين» . أما انلوطين فكان اسعد حظاً منه فتوصل إلى
 إليها - كما ذكر ذلك - اربع مرات

ماذا أخذ التصوف العربي عن المذهب الاسكندرى ؟

لم يقتصر تأثيره على المتصوفين وإنما ظهر بجلاء ووضوح عند الفلسفه
 الاشتراطتين ، فاعتقى الفارابي وأبن سينا نظرية الصدور والاشراق . كاعتقادها
 المتصوفون كالحلالج وأبن عربي . فإذا بالعقل الكلبي والروح الكلبية والواحد
 تقوم مقام الله والقلم واللوح والملائكة . وقد دفم الاسلام هذه النظرية فلم
 يحمل عليها كما حمل على سواها من النظريات

أخذ المتصوفون اذاً عن المذهب الاسكندرى نظرية الصدور ،
 ونظرية الرجوع والانجذاب ونظرية الروح والنفس ، وكره العالم وحياة
 الزهد وانتظار الحياة الثانية . ولكن الانجذاب لم يجعل من تذمر المحافظين ،
 لأن الاتصال بالله في الحياة الدنيا امر لا يقبله الاسلام ولا يعلم به . فان
 النبي نفسه ظل بعيداً ، فكان يعبر بليل الصلة بينه وبين خالقه ، والمسلم المؤمن
 لا يتصل بربه بعد الموت بل يشاهده ويتمتع بانوار جماله بعد ان تهتك ستائر
 العديدة التي تفصل الخالق عن العبد . وكيف يقدر اذاً المتفلس الاسكندرى
 على الاتصال بربه والعناء فيه وهو على قيد الحياة ، وضمن جدران المادة

الكتشيف؟ لم ينظر المتصوفون الى هذا الاختلاف بين الدين والفلسفة الاشرافية والى ما يحيى وراءه من ذيول وتأویلات . فسلم معظمهم بهذا الاتصال والانجذاب وسلموا بان العبد اذا تطهرت روحه وصفت نفسه وهزل جسمه واتبع طريقاً معيناً يتوصل الى الانحاد بربه . لذلك رأينا بعض المطرفين يفخرون الانبياء ويدعون بائنهم لو اعطوا وحي محمد والوهية عيسى لم يرضوا بذلك ، لانهم يقدرون على الاتصال بربهم عندما يشاورون عاو يقدرون على احداث الكرامات والمعجائب عندما يريدون . وقد دفعتهم المدرسة الاسكندرية الى نظرية أخرى خطرة تتجدد في القرآن آيات تذكرها وآيات أخرى تكاد تختفي منها وهي النظرية الحلوالية ، وما يستقيم ذلك من وحدة الوجود كما سنرى ذلك عند ابن الفارض وابن عربي ، فكلامها تأثر بالاملاطونية الحديثة ، وكلامها اعتقادها وانهما بالذهب الحلواني . وسنرى مبلغ هذه التهم من الصحة عندما نعرض لهذين المتصوفين الشهرين المتعاصرين

٣ - المنصر المسيحي :

رأينا في الفصل السابق ان الحركة النسكسية ظهرت في المسيحية قبل ظهور الاسلام . فتابع بعض رجال الدين المسيحي في حياتهم نهجاً يكاد يشبه ما نراه في التصوف العربي الاسلامي . فكانت لا بد من وجود صلة تجمع بين الناسكسين من الديانتين . وكان لا بد من تأثر الحديث بالقديم كتأثر التصوف الغربي في القرون الوسطى بالتصوف الاسلامي .

بنظر القرآن الى الرهبان المتفانيين نظرة الاطمئنان والاعجاب ، فيوصي بهم خيراً . وليس الحديث القائل (لا رهابة في الاسلام) سوى دليل

وأوضح على ذلك الاثر . الذي احدثه الرهبانية في التصوف (١) فاذا صحت روايته وكان صادرا عن النبي فهو يثبت لنا ان الحياة الرهبانية بدأت في الظهور في ايام النبي ، واذا ثبت انه منحول لم يظهر الا في القرن الثاني المجري فهو دليل قاطع ابضا على ان بعض رجال الدين المسلمين حاولوا الاقتداء برهبان المسيحيين . فاندفعوا الحافظون الى اسناد الاحاديث الى الرسول ليشجعوا بذلك التقليد

ماذا اخذ التصوف العربي عن الديانة المسيحية ؟

ان اثبات اثر المسيحية من الامور الميسورة . ولكن تحديد ذلك الاثر وايضاح اجزائه من الامور العويصة التي تلتوي على الباحثين لان الامر نتشابه في افكارها ، ولان البيئة الواحدة اذا انفتت لامتين مختلفتين فانهما متوجهان افكارا متشابهة . ولان في التصوف الاسلامي اثوابا يكاد بشتموك فيه الاسلام والبودية والافلاطونية الحديثة واليسوعية .

ولكن رجال الدين انفسهم كانوا يميزون بين مختلف الفناصر . فاذا بادر تبعة الحنبلي المشهور بتحامل على فضيلة الفقر التي يشغلي بها المتهوفون ويرون انها الاساس الذي يبني عليه مذهبهم . لانه لم يعبر على كلية (فقر) في الكتاب وانما اعنى على كلية (زهد) . وبين التعبيرين اختلاف كبير . وقد اثبت ابن تبيهية ان المتصوفين اقبسوا نظرية الفقر عن المسيحيين (٢) . ونحن اذا راجعنا تعاليم الانجيل نرى انها تخوض على الفقر ، وتفضل

(١) الحديث صحيح . وفي مแนะนำ حديث آخر . هو « لا صرورة في الاسلام » والصرودة في معنى الرهبانية « شيخ الغلايفي »

H . Lammens : L'Islam , croyances et institutions p . 124

(٢)

للقراء على الاغنياء . فقد جعلت من شروط اليمان الصريح الابتعاد عن اعراض لدنيا واعتناق الفقر . فقد جاء في التحيل بقى : (لا تكنزوا الكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والأكلة وبنقب السارقون ويسرون . لكن اكتنزوا الكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا أكلة ولا بنقب السارقون ولا يسمرون . لانه حيث يسكنون كنزاً هناك يكون قابلك) (١) وجاء في التحيل لوفا : (طوبى لكم ايهما المساكين فان لكم ملکوت الله . طوبى لكم ايهما الجياع الان فانكم ستبعون ، طوبى لكم ايهما البابا كون الان فانكم ستضحكون ، طوبى لكم اذا ابغضكم الناس ونفوكم وعيروكم ونبذوا اسماكم نبذ شرير من اجل ابن الانان . افرحوا في ذلك اليوم وتهلاوا فهوذا اجركم عظيم في السماء ٠٠٠٠ لكن الويل لكم ايهما الاغنياء فانكم قد ناتم عزاءكم ، الويل لكم ايهما المشعون فانكم ستتجوعون الويل لكم ايهما الضاحكون الان فانكم ستتوحون وتباكون) (٢)

ألا يمثل هؤلاء الاغنياء الضاحكون اهل الترف في الحضارة العباسية ؟
ألا يمثل هؤلاء القراء البابا كون الزاهدين المتصوفين الذين باعوا دنياهم في سبيل آخرتهم ؟

ولم يقتصر الالتفاق بين الفريقين على الفقر وانما تمتدى الى ناحية أخرى ضعيفة في الاسلام قوية في المسيحية ، وهي نزعة التوكل على الله في المعاش وجميع امور الدنيا . فقد جاء في التحيل متى : « لا يستطيع احد ان يبعد ربين ٠٠٠ لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال . فاهذا اقول لك . لا تهتموا

(١) متى ١ ص ٦

(٢) التحيل لوفا ١ ص ٦

لأنفسكم بما تأكلون ولا لاجدادكم بما تلبسون ٠٠٠ انظروا الى طبور الماء
فانه لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الاهراء ، وايكم الساوري يقوتها
أفلتم انت افضل منها » (٢)

اعتنق المتصوفون المسلمون هذه النظرية وبالغوا فيها ، واستشهدوا بذلك
المثل وبنحوه . وسرى في كلامنا عن التوكل مثل القبرة العدية التي يعنى الله
بامرها . فان هذا التوكل وان ظهر ظهوراً جلياً في المذهب البوذى وكذا
من الاسس التي قام عليها فهو قد تطرق من المسيحية الى الاسلام

وزاد هذا الاثر وضوحاً ، فاذا بعض الشيوخ الذين ظهروا في بغرنصوف
كانوا ينتشرون الى اصل مسيحي ، و اذا بنكرة المرشد تنطرق الى الملقات ،
فيظهر الشیوخ في الاسلام ليعد اذنان المريدين وينير طريقهم ويدربه في
حياتهم الفكرية والعلمية وياسفهم على اخطائهم ، يشجعهم على تحمل الصائب
والعقبات ، يدحthem على حسن طائفتهم . وقد استتبع ظهور مثل هذه الشخصية
المجديدة في صلب التصوف ظهور ناحية فكرية جديدة لم يتمترس اليها فيما مضى
وهي تختص بالمسحية . فاذا بالمربي والصالك والمبذوب والخطاب وجيمع افراد
الجماعات يعمدون الى محبة نفوسهم وعد الذنوب وذم النفس الامارة بالسوء
ومدح الروح الدفعة الى الخير . ولم يبق من فاصل بين مسيحي والمتصوف الارببي
سوى سلطة المرشد او الشیوخ في غفران الخطايا

وقد بلغ التطرف في الاتداء بالزهاد ان انفع بضمهم من الزواج ،
ذلك نقض صریح لتعالیم الاسلام . وقد رأى القائلون بالأمر انهم يرونون
من دینهم وانهم يحرضون الناس على طريقتهم . لذلك وأبنائهم يبذلون عدم

الزواج نظرياً ويحضرون عليه عملياً . ولذكـم لا يـشـرون بذلك عـلـى المرـيدـيـ اـول عـهـدـهـ ، لـانـ الـأـنـسـ بـالـزـوـجـ يـدـفـعـهـ عـنـ الـأـنـسـ بـالـلـهـ . فـيـنـبـغـيـ انـ لـاـ يـشـغلـ المـرـيدـ نـفـسـهـ بـالـزـوـجـ . فـاـنـ ذـلـكـ يـعـمـعـهـ مـنـ سـلـوكـ طـرـيقـ الحـقـ وـالـوـصـولـ إـلـىـ غـابـتـهـ الـقـصـوـيـ . قـالـ أـبـوـ سـلـيـمـانـ الدـارـانـيـ : (منـ زـوـجـ فـقـدـ رـكـنـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ) وـقـالـ : (ماـ رـأـيـتـ مـرـيدـاـ تـزـوـجـ فـيـتـ عـلـىـ حـالـهـ إـلـاـ دـلـيـلـ) (١) وـقـالـ أـيـضاـ : (ثـلـاثـ مـنـ طـلـبـهـنـ فـقـدـ رـكـنـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ : مـنـ طـلـبـ مـعـاشـاـ ، اوـ تـزـوـجـ اـمـرـأـةـ ، اوـ كـتـبـ الـحـدـيـثـ) (٢) قـالـ بـعـضـ الـفـقـرـاءـ لـمـاـ قـيلـ لـهـ تـزـوـجـ : (اـنـ اـلـتـلـقـ نـفـسـيـ اـحـوـجـ مـنـ اـلـتـزـوـجـ) . وـقـدـ كـانـ بـشـرـ بـنـ الـحـرـثـ مـمـنـعـاـ عـنـ الزـوـجـ . وـكـانـ يـقـولـ : (لـوـ كـنـتـ اـعـوـلـ دـجـاجـةـ خـفـتـ اـنـ اـكـونـ جـلاـداـ عـلـىـ الجـسـرـ) وـالـصـوـفـيـ مـبـتـلـيـ بـالـنـفـسـ وـمـطـالـبـهـ . وـهـوـ فـيـ شـغـلـ شـاغـلـ عـنـ نـفـسـهـ ، فـاـذـاـ اـنـضـافـ اـلـىـ مـطـالـبـاتـ نـفـسـهـ مـطـالـبـاتـ زـوـجـهـ يـضـعـفـ طـلـبـهـ وـتـكـلـ اـرـادـتـهـ وـنـقـرـ عـزـيـتـهـ) (٣) وـلـاـ شـكـ فـيـ اـنـ اـمـرـأـةـ تـدـعـوـ اـلـىـ الرـفـاهـيـةـ وـالـدـعـةـ وـتـقـنـعـ عـنـ كـثـرـةـ الـاشـفـالـ بـالـلـهـ وـقـيـامـ اللـيـلـ وـصـيـامـ النـهـارـ . وـيـنـسـاطـ عـلـىـ الـمـزـوـجـ خـوـفـ الـفـقـرـ وـمـجـبةـ الـادـخـارـ . وـكـلـ هـذـاـ بـعـدـ التـجـرـدـ عـنـ رـبـهـ وـبـقـصـيـهـ عـنـ مـقـامـهـ وـاحـوالـهـ .

وـاـذـاـ اـشـتـرـكـتـ الـمـسـيـحـيـةـ وـبـعـضـ الـمـذاـهـبـ الـدـينـيـةـ وـالـفـلـسـفـةـ الـقـدـيـمةـ فـيـ الـخـفـ علىـ الـابـعـادـ عـنـ الـزـوـجـ وـالـتـوـكـلـ وـحـبـ الـفـقـرـ وـالـتـقـشـفـ ، وـاـذـاـ كـنـاـ قـادـرـينـ عـلـىـ الشـكـ فـيـ تـأـثـرـ الصـوـفـيـةـ تـأـثـرـاـ مـبـاـشـرـاـ بـالـرـهـانـيـةـ بـفـيـ هـذـهـ النـوـاحـيـ

(١) اـحـيـاءـ عـلـومـ الدـيـنـ صـ ٨٧ـ جـ ٤

(٢) السـهـرـورـديـ — عـوـارـفـ الـمـارـفـ جـ ٢ـ صـ ١٥٦

(٣) ١٦٨ د د د د

فهناك نواحٌ أخرى لا شك فيها ولا سبيل إلى انكارها، وهي عند ما يعده المتصوفون العرب إلى دراسة حياة الانبياء عموماً والمسيح خصوصاً وحياة الرهبان المنشرين في البلاد الشامية^٤ فيحاولون أن يتدروا بحياتهم ويستخرجوا من الاناجيل أمثالاً تدعم مذهبهم وتشجعهم على حياتهم التسكعية^٥. وعند ما يصبح الانجيل الكتاب المسيحي في الدرجة الثانية بعد القرآن بطالمه الصوفي ويتأمل في تعاليمه ويطبقها على نفسه ويستخرج منها الحكم^٦، لا يبقى لدينا مجال للشك والانكار^٧. وليس علينا إلا أن نقى بعض نظرات على كتاب الاحياء لنرى ذلك الاثر^٨، ونرى مبلغه في نفس المتصوفين

فإن الغزالي عندما يربد أن يمحض السالكين على كتم احوالهم وسكرم الروحي يتمثل بقول الانجيل : « اذا تصدق فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنت يمينك . فالذى يرى الخفيات يجيز لك علانية . واذا صحت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك . فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غالب السكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه (١) » فهو يشير الى ما جاء في الانجيل هى : فتى صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك (٢)

وعندما يربد أن يزهد المتصوفين بالمال واعراض الدنيا يتمثل بآيات من الاناجيل وبحياة المسيح واتباعه واقوال الرهبان والناسكين . فقد جاء في مكتن آخر من الاحياء^٩ قال بعض عباد الشام : كلكم يلقى الله عزوجل مصدقاً ولعله قد كذبه . وذلك ان احدكم لو كان له اصمم من ذهب ظلل يشير

(١) الغزالى احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٨٩

(٢) مقى ١ ص ٦

بها ، ولو كان بها شلل ظل يواريها ٠»

وإذا بالاثر المسيحي يصبح أكثر وضوحاً ، وإذا به بعدل بعض الاسئ
في الديانة الاسلامية ويقر بها من المسيحية . فان الصلة التي تجمع بين المسلم
وربه هي صلة الخوف والرهبة ، فيقف امامه خائفاً خاشعاً تضطرب نفسه هنما
فيخاطبه عبارات منقطعة وانفاس لاهثة ولاب شارد ، فلأننا به يخاف عذاب
جيشه أكثر مما ينشوق الى للذلة نعيمه . بخاء التصوف بحدث جدبد في
الشريعة ، فإذا به يكاد يقضي على تلك الرهبة ، وإذا بالعبد يقف امام
معبوده يخاطبه مخاطبة العاشق معشوقه ، والحبib حبيبه . وإذا هناك نهاية
جدبدة من الشاعرية تنمو وتزدهر وتنشعب وتصبح من اوتارها الاسمية .
وإذ بشعراء كثيرين من العرب وغير العرب من المسلمين ينفقوذ معظم
حياتهم في التقني بمجاالت الله وحلو وصاله ونعم حبه .

فقد انتقلت العاطفة الدینية الصوفية من طور الى طور ، من الحسن
البصرى الخائف الباكي لى ابن الفارض وابن عربى العاشقين المتذللين .
فقد قالت راهمة العدوية الشاعرة المقصوفة المشهورة (١٩٥ هـ - ٨١٠ م)

احبك حبين : حب الهوى	وحباً لأنك اهل لذاكا
فتشغلي بذلك عمن سواكَا	فاما الذي هو حب الهوى
فكشفتك للعجب حتى اراكَا	واما الذي انت اهل له
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاك (١)

واكِن هذا الحب البريء الذي ظهر عند رابعة وامثلها في المهد الأول من التصوف لم يحافظ على سذاجته وبساطته، وإنما تحول إلى نوع من الانس والمباسطة بين العاشق والمحشوق ودفع بعض المتطرفين إلى أحوال غريبة لم يرض بها المسلمين السنّيون فكان نضال بين الفريقين وكن اعظمها وشهاده كالخلج والسرور دلي صاحب هي كل الانوار.

ولاشك في أن المفكـر الصـوفي الـأول الذي حـاول ان يـمزـج بـعـض تعالـيم الـديـانـات مـزـجاً مـقـصـودـاً منـظـماً مـيـنـاً عـلـى بـعـض النـظـريـات الفـلـسـفـية هو ابو حـامـد الغـزالـي . فـاـذا به يـدـخـلـ التـصـوـفـ فيـ حـظـيرـةـ السـنـةـ وـيـرـدـ هـجـمـاتـ الـخـابـلـةـ عـنـهاـ وـيـغـلـفـهاـ بـيـنـ وـشـاحـ منـ التـقـدـيسـ ، وـاـذا به يـأـخـذـ تـلـكـ الجـرـثـومـةـ الـحـبـيـةـ الـقـيـ

ظـهـرـتـ عـنـدـ رـابـعـةـ فـيـرـزـعـهاـ فـيـ تـرـبةـ صـالـحةـ وـيـعـتـنـىـ بـهـاـ . وـاـذا به يـشـارـكـ الـخـواـرـجـ فيـ تـقـدـيمـ الـعـمـلـ عـلـىـ الـعـلـمـ وـلـاءـيـانـ . وـهـلـ كـانـ هـذـاـ عـمـلـ فـيـ وـحدـةـ النـسـكـ الـاـقـنـدـاءـ بـالـرـهـبـانـ الـدـيـنـ تـفـنـنـاـ فـيـ اـيـجادـ الـطـرـقـ الـقـيـ نـرـمـقـ اـجـسـاـمـهـ وـنـقـوـيـ اـرـواـحـهـ وـتـضـعـفـغـرـائـزـهـ ، فـيـسـتـكـيـنـونـ فـيـ سـبـاتـ شـهـوـاتـهـمـ إـلـىـ عـبـادـةـ رـبـهـمـ؟ـ!

عـرـضـ الغـزالـيـ لـالـمـسـيـحـيـةـ فـيـ اـلـ اـمـرـهـ كـاـ عـرـضـ لـجـمـيعـ الـدـيـانـاتـ الـأـخـرىـ منـ يـهـودـيـةـ وـوـثـنيـةـ وـلـجـمـيعـ الـمـذاـهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ كـلـاـكـادـيـةـ وـالـمـائـيـةـ وـالـرواـقـيـةـ وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ وـلـجـمـيعـ النـجـلـ كـلـبـاطـنـيـةـ وـالـجـدـلـيـةـ وـالـصـوـفـيـةـ فـلـمـ يـرـ اـفـضلـ منـ الـاـخـيـرـةـ لـتـوـصـلـ إـلـىـ الـحـقـ كـاـ ذـكـرـ لـنـاـذـلـكـ فـيـ كـتـابـ «ـ المـنـقـذـ مـنـ الضـلالـ»ـ

واـكـنـهـ لـمـ يـعـدـ فـيـ درـاستـهـ الـمـسـيـحـيـةـ إـلـىـ طـرـقـ مـنظـمةـ ، وـلـمـ يـكـبـ عـلـىـ

نـصـوصـ الـاـنـجـيلـ نـفـسـهاـ فـيـ اـسـتـشـفـافـ الـحـقـيـقـيـةـ الـقـيـ تـظـهـرـ بـيـنـ السـطـورـ . وـانـماـ

كـانـ يـعـتمـدـ عـلـىـ مـاـ الـدـيـهـ مـنـ الـبـحـوثـ الـقـيـ كـتـبـهاـ الـسـلـمـونـ فـيـ الـمـسـيـحـيـةـ وـتـعـالـيمـهاـ وـاغـالـيـطـهـاـ وـعـلـىـ مـاـ كـانـ يـتـنـدرـ بـهـ عـلـيـاءـ الـسـكـلـامـ وـالـفـلـاسـفـةـ وـالـشـيـوخـ الـمـهـوـفـونـ فـنـظـلـ بـعـيـداـ بـعـضـ الـبـعـدـ عـنـ روـحـ الـمـسـيـحـيـةـ يـفـصلـهـ عـنـهـاـ ذـلـكـ الـسـتـارـ الـذـيـ

يشف طوراً ويكشف تارة أخرى . ولكن الغزالي الناقد الباحث لم يقنع بذلك التصنيب الضئيل من التعرف الى المسيحية وإنما كان يتلمس الى اثر من ذلك . وكان يجتنب الى ان يقف على النصوص بنفسه فيكون فكره مستقلة لا اثر فيها للتقليد والاتباع . وكان بين الفرض ، والاعمال الفكرية والتدريسية تحقيق به من كل جانب فلا يفرغ من درس الفقه الاسلامي وتدريسه حتى ينصرف الى علم الكلام فيقف على آراء الفلاسفة من قدماء ومحدثين في المسائل الوبائية التي شغلت افكار ابطال الفكر من هيرا كليت الى ابن سينا . ولكنه ادرك في بحث كهولته انه في ضلال بهم وان الحقيقة خالصة ليست فيما يلقى على طلابه في المدرسة النظامية البغدادية وفيها يردد به على غالبية المفكرين المتكلمين . فكان مرضه النفسي ، وكان اهتماؤه الى طريق التصوف . فترك الدنيا وبهايتها وتحول الى التشقق بعد ان اتفق ما يملكه من مال ومتاع على القراء . ورحل الى الشام ومصر والمخازن وفي هذه الرحلة فكر بما فاته في نيسابور ومدينة السلام

فإذا كان شفاؤه من مرضه النفسي بدء عهد جديد هو عهد التصوف فان مروره ببيت المقدس كان عهداً جديداً في نزعته الصوفية (١) فقد وقف هناك امام المسيحية وجهاً لوجه ، امام منبعها والبيئة التي نشأت فيها ، امام تقاليدها ومعابدها الفخمة المصبغة بالالوان ، المزيينة بانواع الفسيفساء والزخارف البزنطية ، المحلاة بالذهب والفضة ، العابقة ببلخور ، الالحان الرومية . فإذا بنفسه الصوفية الجديدة بنت اسمه تتساءل : ألم يكن في هذه الديانة شيء سوري بالاتباع . وإذا به يقرد في مهد المسيح درس تعامله في الأحياء

(سنة ١١٠١ هـ ٤٩٥ م) . فلم يكدر يصل الاسكندرية في رحلته حتى عكف عليها يطالعها . فاختصرها ورد عليها في كتاب : «الردا الجليل على صریح الانجیل»

ما هو موقف الغزالي من المسيحية في هذا الكتاب ؟

يسمل كا يفعل الاسماعيليون بالنص . فلا ينسب الى رجال الدين التحرير والدس فيه . ولكن يأخذ عليهم فهمه وتأويله ، فويرى انهم افسدوا الدينية في تأويل المعانى واستخراجها على غير ما وضعت له . ويرى ان الكلمات والعبارات التي تشعرنا بالوهية عبى ليست سوى جمل مجازية كما حدث للمتصوفين المتطرفين الذين كانوا يتخدون بسانت الله ، ولكنهم ينكرو عجائب المسيح وانما حاول ان يؤوّلها تأويلاً فاسفيناً عمداً اليه ايضاً في كتاب تهافت الفلسفه عندما حاول اثبات الحشر . فهو يرى رأياً دقيقاً ، فيقرر ان عجائب المسيح هي افعال الالهية . ولكن الله اوقف فيه عمل الاسباب الشانوية عند ولادته ، فلم يبق فيه سوى اراده الله واسره .

ويأخذ عليهم اشياء اخرى تظهر نزعه الغزالي الجدلية التي لم تهجره قام المجر بعد اهتدائه ، فيناقشهم كما نقش في الامس فلاسفة الاشراق ، يأخذ عليهم اعتمادهم على فلاسفة الاغريق وتلامذتهم عند ما يريدون اثبات الوهية للسيّد ، وكثيراً ما تؤدي تلك البراهين والقدمات الى نتائج معكوسه لا يقربها الدين ، ولا هي تقر به . ويأخذ عليهم ايضاً اعتمادهم على العجائب التي قام بها المسيح للتوصل الى تلك الغاية . فويرى ان من واجبهم ان يثبتوا الوهية لانبياء اليهود الذين تقدموه المسيح بعمل العجائب . ثم يلاحظ ان القسم الاول

من انجيل متى يثبت ان لا اله الا المسيح ، والقسم الثاني انه الله وانسان ، والثالث انه ليس سوى انسان (١)

ثم يعرض لنقطة دقيقة ، فيقف عند كلام المسيح : «انا والاب واحد» فيتساءل اذا لم يكن هناك شيء كثير من الشبه بين هذا الكلام وبين ما كان شائعاً عند الصوفيين الحلولين : أثبتت هذه العبارة الوهية المسيح ؟ ام ثبتت ان المسيح هو جزء من كل ، وهذا الكل هو الله ؟ وهذه هي نظرية الوحدة الوجودية التي نعرض لها باختصار عند كلامنا عن ابن عربى ولكن هذه المأخذ لم تجعل من الغزالى التصوف عدواً للمسيحية ، وإنما انتقد بعض النقاط ليعتنق نقاطاً أخرى ويدخلها في حلقات التصوفين ، ويعد لها الطريق الى قلب المسلم ، فقد قرب الديانة المسيحية من اذواق المتقشفين . وبكاد يكون كتاب الاحياء تقريراً لحياة الرهبان ، كما هو طريق امين للسائلين المؤمنين . وكما اعاد الغزالى التصوف المسلم الى احضان الشريعة الاسلامية بعد ان اسدل ستار التساهل على اقوال المتصوفين ، وبعد ان حاول ان يجد لبعضها مخرجاً ، هكذا قرب ابو حامد الاسلام والتصوف من المسيحية ، وجعل بين الشريعتين صلات معنوية وعملية ، لم تتضح في عصر كاتضحت في ايامه

فاما اردنا ان نقف على الاثر المسيحي على اختلاف نواحيه في النزعة الصوفية علينا بدرس مذهب ابو حامد الغزالى في الفترة التي تلت مرضه النفسي فان العناصر الضعيفة او القوية التي ظهرت قبله في اقوال الشيوخ واعمالهم اجتمعت فيه وقامت على أساس يقيني متين . وهذا ما دفع الخنابلة فيما بعد ،

في الشام والعراق والمغرب ، الى الشك بعقيدة حامي ذمار الاسلام وحيجته والى اضطهاد اتباعه وحرق كتبه . وقد كان الغزالي حقاً عدواً مؤلاً للحافظين ، وكان يرجي الى القضاء على النزعة الاسلامية الصوربة ليستعipس عنها بنزعة اخرى قلبية باطنية عمليّة صادقة . فكان نضال عنيف بينه وبين المسلم القديم . وكان له انتصار لا يزال اثره في العاطفة الاسلامية الى الان . اما الذي انتصر بانتصار الجيد على القديم فهو المسيحية التي تربعت في قلوب بلتصوفين ، ولا نزال متربعة الى الان

٤ - المنصر الهندى البوذى

قد يتعجب القارئ عندما يرانا نقاش عن الاثر الهندى في عامة والبوذى خاصة في المذهب الصوفي بعد ان قررنا انه اسلامى ، نشأ من الدين الاسلامى وقاد يستقل بنفسه في اواخر القرن الثاني الهجري ، وفي ذلك الحين لم تتمكن الفلسفة الهندية فشت وذاعت في الحلقات الفلسفية ، وما افتح ابن سبكتكين القائد المشهور بلاد الهند .

فهل نحن قادرؤن على اثبات هذا الاثر ، وتلمس اجزائه في خضم زاخر بالعلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة ؟ ان هذا صعب الحال كثثير العقبات ، يكاد يغمر فيه كل دارس لان ليس بين ايديينا نصوص صريحة نعتمد عليها في استخراج احكامنا . فافت كل ما يقال حول هذا التأثير او التفاعل والتزاج ليس سوى نتائج من مقدمات واهية خائرة .

وقد بلغ النطэр ، بعض الباحثين الحمدئين الى ان يعيدوا الصوفية الاسلامية العربية الى اصل هندى بوذى معتمدين في ذلك على حوادث قد تكون تاريخية وقد تكون خرافية ، منهم الدكتور طه حسين في

كتابه : « ذكرى أبي العلاء » والمستشار المشهور كولد زهير في كتابه « العقيدة والشرع في الإسلام »

يكاد طه حسين يكون مؤمناً بهذا المatum ، ويقاد بجهل كل اثر . واه او يحاول ارجاع كل عنصر فلسفى نشأته في التصوف . الى الهند . فيه دم لنا بعض ملاحظات عن ذلك المatum ، ويقول مختصاراً كل ذلك : « من هذا تعرف ان التصوف ليس مذهبًا إسلاميًّا خالصًا وإنما هو مذهب هندي ، اخذ صبغة الفلسفة اليونانية عند الرواقيين والاسكندريين ، ثم أخذ الصبغة الإسلامية في أيام بني العباس (١) »

اما ان لا يكون « إسلاميًّا خالصًا » فهذا مما لا شك فيه ، لأن الفكرة لا تقدر على الاستقلال بذاتها ، كما ان الفرد لا يقدر ان يعيش وحيداً دون ان يتصل بسواء من الافراد في سبيل معاشة . واما ان يكون التصوف هنديًّا في شأنه واسلاميًّا في خاتمه فهذا مما لا يقره العقل ولا يثبته التاريخ وذلك لأن العناصر الهندية البوذية لم تظهر فيه بوضوح الا بعد ان تم بما وانشر واصبح له تاريخ وزعماء وابناء ومؤلفات . ولأن هذه العناصر عندما بروزت في لاهوته كان التصوف قد نضج ولم يبق له من سبيل للتقدم في العاطفة الحالية ، فدفعت الى الخروج عن العقيدة الإسلامية والعقيدة الاسكندرية . والدليل القاطع على بطلان رأي الاستاذ طه حسين الاخير هو ان الاسلام لم يضطهد التصوف في اهل عهده ، وإنما ظهر اضطهاده عند ما تسررت العواصم الفلسفية عامة والبوذية خاصة اى احلقات الصوفية ، وبما بعض المتتصوفين يجرون بودا في تحامله على الامامة المعبودة : الشرع المتبوع

والاحاديث القدسية

ونظن ان السبب الذي دفعه الى هذا الحكم القاطع في اصل التصوف وعناصره هو اختصاص اهل الهند منذ اقدم العصور بنوع من الحياة يكاد يشبه حياة المتصوفين ، وتأثير هذه الحياة في المدارس الاغريقية التي ظهرت بعد السocratesيين كالرواقيين في آثينا والفلاطونيin الحدثين في الاسكندرية . واما كولد زهير فهو لا يبلغ مبلغ الاستاذة حسين في التطرف والقطع بسائل دقيقة كهذه ، وانما يكتفي بـ لاحظة بعض حوادث بارزة في التصوف الاسلامي العربي والفرق الدينية الهندية . ويتسائل اذا لم يكن بين الفتنتين صلة التلمذة والاقتداء

اول هذه الحوادث التي ينافي بها المستشرق فارهـ حادثة ابرهيم بن ادم ، فان يبنه وبين (سيدارتا كوتاما) Siddharat Gautama « الذي » الذي اصبح فيما بعد بوذا — شهماً غريباً . فقد بدأ المذهب البوذي بـ كوتاما كـ بدأ المذهب الصوفي المنظم بـ ادم . كان الاول اميراً محاطاً بـ عطف ايه الملك ، وكان الثاني اميراً مستعداً لارتقاء سدة الملك . انصرف الاول الى حياة اللهو والمحون بين رقص الجواري وعزف الموسيقى ، ثم تحول الى حياة الرهد والتقطش كـ انصرف الثاني الى التمتع بـ لذائذ الشباب ليتحول الى التصوف فيما بعد . كلـ هما امير ثري جيل ، وكلـ هما يتذمران من اللذة التي ترافق الفقى والفتوة والجمال ، وكلـ هما بتوفان الى مثل اعلى بعيد .

ابرهيم بن ادم :

هو ابو اسحق ابرهيم بن ادم بن منصور من كورة بلخ . كان مزابنا

الملوك بخرج يوماً متصيداً ، فأنار ثلبياً او اربنا . وفينا هو مجده في طلبه هتف به هاتف : « يا ابرهيم ! ألمذا خلقت ام بهذا أمرت ؟ » ثم هتف به من قربوس مترجمه : « والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت » فنزل عن دابته وصادف راعياً لايده ، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها ، واعطاه فرسه وما معه . ثم دخل الbadية ورحل الى مكة ، وصحاب سفيان الثوري والفضل ابن عياض . ودخل الشام ومات فيها

كان يأكل من عمل بيده مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك .
يروى انه رأى في الbadية رجلاً علمه اسم الله الاعظم . فدعاه فرأى
الخضر وقال له : إنما عالمك أخي داود اسم الله الاعظم

كان عامة دعائه : « اللهم اقلني من ذل معصيتك الى عز طاغتك » .
اخبر محمد بن الحسين ان ابرهيم بن ادم قال لرجل في الطواف : « اعلم انك لا تزال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات : اولاًها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة . والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل . والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد . والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر . والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر . والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت (١)

ان بيننا وبينه فترة من الزمن . فليس لدينا شيء من النصوص نقدر ان نعتمد عليه في فهم مذهب اللاهوتي اذا كان له مذهب ، كما نقدر ان نعمل ذلك عندما نريد ان نتكلّم عن بوذا . فإنه لم يؤثر عن ابن ادhem مؤلفات ،

(١) باختصار عن الرسالة القشيرية ص ٨ . راجع دعاوه باهباب في

ولم يكتب عنه سوى نتف صغيرة مبعثرة في كتب التصوف ، وهي مجموعة فصائح دينية عملية تساعد المربيدين على تفهم طريق الحق ، وتحض في معظم الأحيان على فضيلة الفقر .

ولكن هذا الأمل الذي يمنعه عنا في المرحلة السادسة من الطريق قد يخالف كل ما نراه عند المتصوفين الذين لقوا به . لأن القضاء على الأمل والاستعداد للموت هو فكرة بوذية محضة كما هي ، ولأن هذه الدرجة من الحياة العقلية هي الذروة العليا للرهبان المنود .
فهل بين ذهاب الأمل عند ابن ادم والقضاء على الرغبة عند بوذا صلة ؟ وهل هناك تأثر واقتداء ؟ نربد ان نعتقد ان ذلك ليس سوى توارد في الأفكار بين الزاهدين .

بوذا والبوذية (١)

تقوم البوذية على مذهب التناسخ ، لأن بوذا قبل ان يظهر في شكله الاخير من بشخصيات عديدة تبلغ خمسة واربعين منها السكة والهامة والديك والجرذ والسلحفاة والارنب والاييل والمحصان والفييل والقرد والثور وحيوانات أخرى غير هذه . ولكنها في الطور الاخير الذي سبق رسالته قرارات يقوم نفسه ويتطهر من قدر الحياة لكي يتوصل الى درجة بوذا . فوزع امواله وتنازل عن عرشه واعطى ولديه لرجل برهمي ليخدماه . واعطى زوجه (مادي)

(١) راجع *Mme Gallaud : La vie du Bouddha et les doctrines bouddhiques*

A . Barth : Religions de l'Inde Paris 1880

لبرهمي آخر . ولكن الله (اندرا) اعاد اليه كل ذلك بعد هذه التضحية فعاد الى ملكه . وعندما جاءه الموت صعد الى السماء .

هذا هو المهد الذي تقدم ولادته النهاية ، وهذا ما جرى له قبل ان قلح عليه الالمه بالرجوع الى العالم لاجل راحة البشر . فقرر العودة فولدت مامايا « Maya » امرأة سودوانا « Suddhodare » وكان ذلك عام ٥٦٠ ق . م « كان ابوه في ولادته الاخيرة ملكا على قبيلة ساكياس « Sâkyas » فلم يكدر يخرج من جنب امه الامين حتى مشى وتكلم فقال : انا ارفع مخلوق في العالم وافضلهم . هذه ولادتي الاخيرة ، ساضم حداً للخلق والهرم والمرض والموت ، وسأسحق الشيطان وجنوده »

اقام لها ابوه بعد ولادته بخمسة ايام حفلة ابتهاجا به ، وكان بين المدعوين فئة من المتبئين فقالوا : ان الوليد سيغدو ملكا عظيما اذا بقي في العالم ، او بوزا كاملا اذا اتبع طريق الدين . فدعاه ابوه في تلك الحفلة باسم (سيدارتا) - ابي الرجل الذي يبلغ غايته - وقال احد البراهمة الحاضرين : ان هذا الغلام يغدو رجل دين ، ويكون السبب في ذلك رؤبته شيئاً وسريراً ومتيناً وراهباً .

خاول ابوه ان يصرفه الى حياة الدنيا خوفاً عليه من النبوة المشؤومة فشيد له قصراً فخماً منيعاً ووضع حوله الحرس لكي يحولوا دون حدوث اسباب الانقلاب في نفسية ابنه . واحاطه بالنساء الفتيات الجميلات . وفي احد الايام حملته عصته الى احد المعابد البرهمية وهو لا يزال طفلا . فقال لها : (الى اي الله اعظم مني تقدبني اليوم ؟ انا رب فوق كل الارباب . لا يوجد الله مثل فكيف بالله فوقني .) وتروي الاسطورة انه عندما دخل الميكيل تحركت الرسوم وسجدت عند قدميه ، وتساقطت عليه سيول من

الزهر فمحبته

احاطه ابوه بالراقصات ، وزوجه من الاميرة باسو دارا « Yaçodhara » فكانت حياته عرسا دائمـا . وكان ابوه يقول : « لا تنقطعوا لحظة عن الموسيقى والفناء . لتكن الحياة سلسلة من اللذات والألعاب ولتظهر النساء غوايتهن . لم يمتن علىـ الامير الشاب لكي لا يتحول فكره المسحور الى الناحية الدينية .

ولكن الاب المسكون لم ينجح في محاولته . فعندما بلغ الامير التاسعة والعشرين من عمره تحققـت نبوءة البرهمي الراعـب فرأـي سيدارتـا كوتاما شيخـا عفت السنون عليه ، فعلم ان هذه نهاية كل مخلوق . ورأـي عليـلا يتـألم فعلم ان كل انسان سيـتألم عاجـلا او آجـلا . ورأـي جـثـة عـفـنة تـحلـ اـجزـاؤـها فـادرـكـ انـ الاخـلالـ هوـ نـهاـيةـ كلـ جـسـمـ مرـكـبـ . ورأـيـ اـخـيرـاـ رـاهـباـ تـائـها زـاهـداـ هـادـيـ الـوجـهـ مـطـمـئـنـ الـخـاطـرـ فـشـعـرـ عـنـدـئـذـانـ الـلـذـائـذـ الـتـيـ تـنـعـمـ بـهاـ فـيـ صـرـحـ الـامـارـةـ زـائـلـةـ ، وـانـ وـرـاءـ ذـلـكـ السـتـارـ الـفـضـيـ حـيـاةـ الـيـمـةـ وـصـورـآـ قـيـمةـ للـمـجـتمـعـ الـاـنـسـانـيـ . فـقـرـرـ الـاعـتـزالـ عـنـ الـعـالـمـ ، وـغـادـرـ القـصـرـ الـذـيـ بـنـاهـ لهـ ابوـهـ ، وـهـجـرـ الغـوـانـيـ الـمـلاـحـ وـالـجـوارـيـ الصـبـاحـ ، وـالـاـوـتـارـ الـمـتـرـنـةـ وـالـخـاجـرـ الشـادـيـةـ لـيـصـفـيـ فـيـ سـكـونـ الغـابـةـ وـصـمتـ الطـبـيـعـةـ ، وـصـوتـ يـحـمـلـ اليـهـ الحـقـيـقـةـ ، حـقـيـقـةـ الـوـجـودـ .

ناـهـ فيـ مقـاطـعـاتـ الـهـنـدـ مـفـنـشـاـ عـنـ غـايـتهـ ، مـائـلاـ عـنـهاـ كلـ منـ يـراهـ فيـ طـرـيقـهـ . فـاـذاـ فـيـ كـلـ زـاـوـيـةـ رـاهـبـ بـرـهـمـيـ يـعـلـمـهـ طـرـيقـاـ لـلـوـصـولـ ، وـاـذاـ بـهـ يـمـتـنـعـ عـنـ الطـعـامـ وـيـقـشـفـ وـبـوـهـ جـسـمـهـ وـيـتـظـرـ الـاتـصالـ بـالـنـفـسـ الـسـكـلـيـةـ حـسـبـ الـطـرـيقـةـ الـبـرـهـمـيـةـ الـقـدـيمـةـ . وـلـكـنـهـ لـمـ يـنـجـحـ فـيـ مـحاـولـتـهـ . فـغـادـرـ الـرـهـبـانـ وـقـرـدـ انـ يـتوـصلـ إـلـيـ غـايـتهـ بـنـفـسـهـ دونـ بـيـاثـرـ بـتـعـالـيمـ الـفـرقـ الـفـلـسـفـيـةـ اوـ

الدينية التي كانت منتشرة آنذاك في كل مكان .
 توجه الى ارفيلا حيث قدمت له احدى المجائز طبقاً من الذهب فيه
 لبن وارز وعسل فحمل المديرة وسار بها الى ضفة ساقية نيرانجرا Neranjara
 فاغسل فيها ثم اكل الطعام ورمى بالطبق في الماء وقال : « ليطف هذا الطبق
 وليجر معه كسام للمجرى اذا كنت اصبح بوداً هذا اليوم . او ليس مع المجرى
 اذا لم يكن هذا . » فإذا بالطبق الذهبي يصعد النهر وتتحقق امنية كوتاما .
 عندئذ احاط به الشيطان مارا Mara « وارد ان يثنيه عن عزمه
 فارسل اليه بناته الثلاث المدعوات : اللذة واللام والحياة . ثم بعث اليه ايضاً
 بجيوش من الشياطين لكي تحوله عن غايتها فلم تفلح .
 فذكر في سكينة نفسه اذا بالحقيقة تستطع كالنجر ، واذا به يدرك
 الحقائق الأربع التي قام عليها المذهب البوذى وهي :
 ١ - حقيقة الالم ٢ - حقيقة منبع الالم ٣ - حقيقة ملاشاة الالم
 ٤ - حقيقة معرفة الوسيلة الملاشة الالم
 عندئذ تغير وجه الكون . وبرزت الطبيعة في ثوب العرس لأن
 كوتاما بلغ درجة بودا .

اصبح بعد ذلك رئيس فرقه كبيرة من المتصوفين الذين يتبعون في حياتهم
 طريقة واحدة ويتبعون عن العالم ويتركون اموالهم واولادهم وبمقدم
 ويتحولون الى الرهبانية . وقد دعيت هذه الفرقه في اول عهدها
 بالبيخوس « Bhikkus »

وقف بودا في احد الايام بينهم بقول :
 « اسمعوا ايهما البيخوسون حقيقة الالم السامية . ان الولادة هي الم . والهرم
 لم . والعلة الم . والموت الم . وجود الاشياء التي تكرهها الم . وابتماد

الّي نحبّها ألم . وعدم التّوصل إلى ما نرّغب فيه ألم . وخلاصة القول^١: إن كلّ تعلق بالوجود ألم .

« اسمعوا إيهما البيخوسيون حقيقة منبع الالم السامية . ان التعطش الى الوجود يقودنا الى الولادة مرة ثانية ، وفي نفوسنا رغبة تدفعنا الى اللذة والطموح .

اسمعوا إيهما البيخوسيون الحقيقة السامية في ملاشاة الالم . إنها في القضاء على كلّ عاطفة ، والخلاص من كل طموح بالقضاء على الرغبة . اما الطريق التي توصلنا الى ملاشاته فهي الارادة الثابتة والكلام الصادق والاخلاق الصالحة والتأمل الحقيقي . هذه هي الطريقة التي تفتح العيون وتقوى الروح وتقود الى الراحة والاشراق والنيرvana . ان الرغبة هي سبب التناصح ، والتناصح سبب الالم . فاذا نزعنا الرغبة من صدورنا تخلصنا من الالم . »

وقد كان بوذا يمحض^٢ تابعيه على حياة الفقر والتوكل والابتعاد عن الامل كاً بعلمهم اخلاص من الرغبة والالم . كان يقول : « ان الذي عنده اولاد يتصرف الى الولادة . والذى يملك ابقاراً ينصرف الى ابقاره . كل ما يملكه بسبب لانا المعلوم . ولكن الذي لا يملك شيئاً ليس لديه هـ »

يزوي ان احد الرهبان ، وهو بدّعى سانكاماجي « Sangamaji » ، كان راقداً في ظل احدى الاشجار بعد الفداء في حدائق جيتافانا « Jetavana » حيث كان يقيم بوذا آثئداً . فاقتربت منه اسرأ أنه وهي مسكة ييد ابنتها وقالت له : « هذا ابنك فاعتن بتربيته » فلم ينبعس الراهب بكلمة . واعادت الالم كلّها مرات عديدة ولكنها لم تحظ بمحاب . فتركت الغلام قرب الراهب ايه وذهبت . ولكنها عندما ابتعدت نظرت الى زوجها فاذا به لم يعر الطفل الشبهه ولم يلق عليه نظرة . فيشتت منه وقالت في نفسها : « انه لن يعتني

به » . ثم عادت فأخذت ابنها وَكُرت راجعة من حيث انت . وكان المعلم يوذا يتأمل في هذا المشهد فاقترب من الراهب وقرّظه بهذا الكلام : « لم يسر بقربيها ، ولم يحزن لبعدها . ان سانكماجي لا تغويه علائق العالم ، فهو برهمان حقاً » وقد كان المعلم يعني بهذه الكلمة الرجل السِّـكـاـمـلـ .

هذه بعض تعاليم قامت عليها البوذية . فإذا يجمع غفير من البراهمة يعتقدونها ، وإذا بالحر كة الدينية الراهبانية التي امتازت بهـا بلاد الهند في القرن الخامس قبل المسيح تتشعب وتنتظم . وإذا يوذا يزيد في كره الحياة المادية ، وإذا بالراهبانية البوذية تتحقق آمال المتعطشين إلى السعادة الحقة . فقامت الأديار ، وانشئت النظم والمناهج ، ورتبت الاعمال ، ونظمت العبادات والصلوات . وإذا بهذه الراهبانية تمزج بالفرق البرهمية العديدة فيغدو من شروط الانخراط في سلك الجماعات الرهبـانـ بالدنيـاـ وحيـاةـ الفقر والتوكـدـ وحلـقـ الرأسـ ولبـسـ الخـرـفةـ الصـفـراءـ . وانقسم الرهـانـ فيما بينـهمـ إلى فئـاتـ عـدـيدـةـ تـخـتـلـفـ حـسـبـ الـقـدـمـ وـالـولـادـةـ وـالـاسـتـعـدـادـ . فـمـنـهـ المـرـشدـ وـمـنـهـ المرـيدـ المـبـتدـيـ ، الـذـيـ يـخـدمـ وـيـقـومـ بـجـمـيعـ الـاعـمـالـ الـقـيـامـةـ بـهـاـ منهـ المـجـمـوعـ . وـمـنـهـ الرـئـيسـ الـذـيـ يـخـضعـ لـأـرـمـهـ جـمـيعـ الرـهـانـ .

كانوا يعيشون على الاستجداء ، ويأدون إلى أديارهم الفخمة التي بناها لهم الأمراء والملوك فيما كانوا قد بنيـهمـ ، وينـأـلـونـ تحتـ الاـشـجـارـ الكـبـيرـةـ وـيـحـاـلـونـ التـوـصـلـ إـلـىـ السـكـرـ الرـوـحـيـ . ولا تـمـ هـذـهـ الـحـالـ عـنـدـمـ الاـ بـلـاشـأـةـ

الاحساس الفكري ، فيصبح الراهب في الفناء المطلق او النيرفانا (١) .
نستنتج من كل ذلك ان فقراء المندواد كانوا يعيشون منفردين في
اديابهم او تائبين في الفسادات ، ويتبعون في حياتهم الانسانية نظاما كالذى
نراه عند المتصوفين المسلمين والرهبان المسيحيين ويلبسون ملائهم خرقه
تعيزهم عن سواعم من الناس . و اذا بكل فريق منهم يرمى الى غاية مشى اخلاقية
لا تتحقق الا بالتخالص من العام الحسي والتقرب من الحق المطلق . فيوجدون
لذلك الطرق الصالحة التي دعاها متصوفو العرب بالمقامات والاحوال ، ودعاهما
فقرا ، المند بالخلصال الحميد . فاذا هناك عشرة ذنوب يجب اجتنابها وهي :

- | | |
|-------------------|-------------------------|
| ١ - قتل نفس ذي كل | ٢ - استحلال اموال الناس |
| ٣ - الزنا | ٤ - الكذب |
| ٥ - النيميمة | ٦ - البذاءة |
| ٧ - الشتم | ٨ - شناعة الالقاب |
| ٩ - السفه | ١٠ - الجحد لجزاء الاخرة |
- واذا بعشر خصال يجب التخلص منها وهي :
- | | |
|------------------|---------------------------------------|
| ١ - الجود والكرم | ٢ - العفو عن المسيء ودفع الغضب بالحلم |
|------------------|---------------------------------------|

(١) لم تختص البوذية بهذه الكلمة وانما شاركت فيها البرهمية التي
كانت تذهب الى ان النيرفانا هو التخلص من التنساخ عند ما تتوصل
النفس النقية الفردية الى الاتصال بالنفس الكلية . ولكن البوذية لا تعتقد
بمثل هذه النفس . فهي تذهب الى ان النيرفانا هي في القضاء على الرغبات
والتوصل الى الفناء المطلق .

- ٣ — العطف عن الشهوات الدنيوية
 ٤ — التخلص من العالم الغافي الى العالم الباقي
 ٥ — رياضة العقل بالعلم والادب و كثرة النظر في عوائب الامور
 ٦ — القوة على تصریف النفس في طاب العلیا
 ٧ — لین القلب وطیب الكلام مع كل واحد
 ٨ — حسن المعاشرة مع الاخوان بایشار اختیارهم على اختیار النفس
 ٩ — الاعراض عن اخلاق الكلية والتوجه الى الحق بالكلية
 ١٠ — بذل الروح شوقا الى الحق وتوصلها اليه . (١)
- وقد اختص بعض البوذيين الذين ظلوا محافظين على فکرة المعلم بمراحل صوفية تکاد تكون نفس المقامات التي ندرتها في فصل آخر .
 نقدر اذاً ان نلخص الشبه بين الفريقين بما بلي :
- ١ — الابتعاد عن العالم
 - ٢ — الزهد والتقصیف
 - ٣ — الحياة التائمة او المقيدة ضمن جدران الادبار
 - ٤ — المقامات الروحية التي توصل الى الغایة
- ولكن رغم هذه الصلات الوثيقة التي تجمع بينهما ، فهناك اختلاف كبير في الفایة التي يرمي اليها كل منها . فان المتتصوفین المسلمين كانوا يرمون الى التخلص من سيطرة النفس الامارة بالسوء لنصفو ارواحهم وتحمیما فيهم الحصال الحميد ففيتوصلوا الى مشاهدة الحق او الفناء فيه . وكانت غایة

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل لابن حزم
 ج ٤ ص ١٣٥ — ١٤٢

البودييين الفناء ايضاً . ولكن الفنائين مختلفان ، لأن البوذى لا يعتقد بوجود « الله » ، وإنما يسلم بوجود الملة عديدين كانوا فيها مخفى رجالاً عاديين ، امتازوا بحسن صريرتهم وأعمالهم الخيرية فتطهروا وتخلصوا من التناصح وانتقلوا إلى السعادات . فليس هناك إذاً الله واحد يبني المتصوف البوذى نفسه فيه كما يفعل المتصوف المسلم . ثم إن الفناء البوذى او التيرفانا هو في القضاء على شخصية المتبع ، أما الفناء المسلم فهو أما « مسقط الاوصاف المذومة » كما يقول القشيري ، وأما رجوع الروح إلى منبعها الأول كما نرى ذلك في الأفلاطونية الحديثة .

وقد تسربت بعض الافكار البوذية الخطيرة منذ عهد أبي علي السندي استاذ البسطامي ، ظهرت ظهوراً واضحاً عند الحلاج الشهيد الصوفي المشهور فقد قام برحلات طويلة في السند والمند ووقف على تعاليم البوذية المعدلة المتطرفة في اديارها ، واخذ بعض الشعوذات وعاد بها إلى البلاد الإسلامية والعربية يخليب بها لاب الناس العاديين والمربيين المؤمنين والشيخ الشاكيين ورجال الدين الحافظين . وقد بلغت به ثقته بنفسه وبقدرته الغريبة في الشعوذة الهندية إلى المزء بالناس والقيام بالعجبات الخادعة امامهم ، وإلى الادعاء بأنه على اتصال وثيق بالله ، وأنه يصبح في بعض الاحيان الله نفسه فيتكلم بلسانه وي يجعل نفسه فوق الاوليات والانبياء الحق . وهذا التطرف في الاقوال ، وهذه الاحاديث اللدنية المفرقة في الكفر والزندة ، لم نر لها شبيهاً في المدرسة الاسكندرية والرهبانية المسيحية ، لم نرها الا عند بوذا الغلام الذي يحمل على آلهة المعبد حيث قادته عمتها . نراها في مذهبه الذي يجعل من الارباب بشراً كسواهم ولكنهم يفوقون الناس العاديين ، بانهم عرفوا الحقائق الاربع التي تقدم الكلام عنها ، وادر كوا انها تقودهم الى

الرتبة العليا من الوجود ، فلماذا نذعن لهم اذا ؟ ولــ اذا نحنــي الرؤوس امام عظمــتهم ؟

ولــكن الاسلام لم يكن مستعداً لهضم مثل هذه الافكار ، لــان التوحيد لا يقبل الجدل والشك ، فظلــت هذه الاراء تختــمر في بعض النــفوس حتى اذا ظهرــت عــلــنا لاقت من الاضطهــاد ما لــاقاه الحــلاج والــســهــورــدي صــاحــبــ هــياــكلــ الانوار .



التصوف العملي

كان المتصوفون يعيشون في اول الامر افراداً ، لا تجمعاً بينهم وحدة المذهب ولا تربطهم رابطة المبدأ . فينصرف كل واحد الى نوع خاص من الحياة ، وبؤلسف لنفسه نظاماً يتبعه ويسير عليه من ظعام وشراب وصلوة وسهر وصيام وزهد . وذلك لأن التصوف كان لا يزال في عهده الزاهي ما تخوض بعد الى مذهب منظم .

ولكنهم لم يثابروا على هذه الخطة طويلاً فجاءت بين الافراد جامعة العاطفة والغاية ، فاذا بهم يتألفون ويتقاربون وينظرون حياتهم تنظيماً دقيقاً ويضعون قوانين محددة لاتباعها والسير بحسبها .

لم تظهر الجماعات الصوفية الا في مستهل القرن الرابع المجري بعد ان ذاع امرها وكثر طالبوها وانتشروا في البلاد الاسلامية . ولا شك في ان اول جماعة منتظمة تدين بمذهب خاص وتدافع عنه وتنتعاون في امورها هي الجماعة البصرية ، ثم الجماعة الكوفية ، انشأتا على حدود فارس ، واتفقا في الغاية واختلفتا في الجزئيات كالسماع والذكر والاسانيد والشطع .

ولكنهما مهدتا الطريق لسوخ اقدام الشيوخ في المدن الاسلامية . فاذا في كل مدينة زعيم كبير ذو كرامات واحاديث لهنية وصلاح وتقى ، يصرف وقته في التعبد والتقصيف وتدريب الاحداث واصدقاء النصائح ، و اذا بالمبتدئين من المتصوفين ، من حدود الهند الى اقصى المغرب واسبانيا ،

يغادرون بلا دم للقاء هؤلاء الشيوخ والاستماع اليهم والقبس من هديهم .
وإذا بنا نرى المتصوفين يتتحولون من حضر الى نوع جديد من البدو الرحّل ،
يتنقلون من مكان الى آخر ، حارئين ، كأنهم يفتشون عن حاجة فلا يجدونها
او كأن نزعة النفس اللاهوتية الفلسفية الحائرة المتوبّة قد وجدت دواءها
في هذه الرحلات الطويلة العديدة التي تكاد لا تنتهي .

وقد ساعد هذا الانتقال والهواج والافتراض في ايجاد رابطة قوية بين
 مختلف الفرق والجماعات . ولا سيما في احداث لغة خاصة بهم يتفاهمون بها
 ويعبّرون بمفرداتها عن احوالهم النفسانية واغراضهم الدينية .

اشتقاق اسم التصوف :

كما اختلف الناس في شرح مذهبهم وتقدیس شيوخهم ، فقد اختلفوا
 ايضاً في ابسط الامور التي تتعلق بهم . فلماذا دعوا باسم المتصوفة او الصوفية
 ولم يعرفوا بغير هذه التسمية ؟

خصص المؤرخون الدينيون لهذه النقطة صفحات كثيرة ، واسهوا في
 الكلام عنها . فادلى كل برأي ، وذكر كل منهم فكرة تناقض فكرة
 سابقة . ولكنهم لم يتعدوا القول بأن اسم الصوفي مشتق من الصفة او من
 صوفي او من صوف :

اما الصفة فهي مكان في المدينة كان يجتمع فيه ما يزيد على ثلاثة مائة من
 المسلمين الصالحين الزاهدين في ايام النبي ، لا تحرك الدنيا لم يلم قلبا ، ولا
 تؤثر فيهم تجارة واموال ، وإنما صرفوا وجوههم الى ربهم يتبعدون له وبهتمون
 ياس آخرتهم . وكان اكلهم في المسجد ونومهم في المسجد . ينفق عليهم

من مال المسلمين ، ويكرمهم الناس لتقواهم وصلاحهم وقربهم من الرسول .
 وكان النبي يؤمن بهم ويجلس معهم وبهؤلئك لهم ، ويبحث الناس على
 اكرامهم واحترامهم . حق بلغ من اعزازه لهم - كما يروي اصحاب
 الحديث - الى انه كان لا يقوم من مجلسه اذا جلس اهل الصفة حوله حتى
 يقومون ، وكان اذا صافحهم لم ينزع يده من ايدهم قبلهم . وكاننا بالرسول
 قد شعر عندئذ بالدور الذي يقوم به هؤلاء الجماعة في عامة المسلمين ،
 وبالروح الجديدة التي يشونها ، فيضعون صلة المرء بالعالم ويوثقون صلةه بربه
 فكان بنزلم ضيقاً في بعض الاحيان على المؤمنين الاغنياء بحسب غمام
 وثروتهم . فيعني هؤلاء بهم ويستقبلونهم على الرحابة والسمعة ويهشون لهم ،
 وينفقون عليهم بسخاء وكرم تقرباً من الرسول ومن الله .

ولكن اهل الصفة - رغم ما كان لهم من احترام واحتراماً - فانهم
 لم يأخذوا من نعم مضيقيهم الا القليل الذي يساعد على ابقاء الرمق : طعامهم
 بسيط يسير ، واجسامهم ضارة ، وعيونهم غائرة ، ونيابتهم متهرئة «يا كلون
 اكل المرضى ، ينامون نوم الغرقى » . فقد قال ابو هريرة : «رأيت سبعين
 من اهل الصفة يصلون في ثوب ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فاذا ركب
 احدهم قبض عليه بيديه مخافة ان تبدو عورته » . وقد روي في الخبر ان النبي

وقف على جماعة من اهل الصفة وقد استتر بعضهم ببعض من العربي وقاري
بقرأ عليهم القرآن وهم يكرون (١)

هؤلاء هم اهل الصفة ، كان منهم بلال المؤذن وسلمان الفارسي . فاذا
صح زعم المؤرخين الذين يقولون بان الكلمة التصوف او الصوفية هي من صفة
فان ذلك يثبت لنا بوضوح وجلاء الاثر الاسلامي في التصوف ونشأتها ،
ثم يبين لنا ايضا ان التصوف لم ينشأ في القرن الثالث او الرابع ، وإنما نشأ في
حياة الرسول . ونظن ان هذا الرأي ضعيف واه ، وانه ليس سوى افتراض
لا يحظى له من الحقيقة .

واما الذين يقولون بان الاسم مشتق من صفوی فيقولون ان
الناس في يوم الحساب يحضرون للعقاب والثواب ، فيرفع الله الصالحين اليه
ويطرح الطالحين في النار ، واما الصالحون فهم على رتب وصفوف ، في المؤخرة الناس
الذين لم يفعلوا سوى القابل من الخيرات والحسنات ، ثم يأتي امامهم من م
اكثر منهم خيراً واعمالاً حسنة ، ثم يتقدمهم فريق اكل ، الى ان يبلغ
في آخر الامر الى الصف الاول ، وهم خير الناس قاطبة واقربهم الى السکال

(١) ربما يظن ان هؤلاء — اهل الصفة — كانوا في المسجد كفقراء
التكلبا اليوم يا كون ويشربون ويصلون ولا يعملون ، والحقيقة انهم اول
من يسارع للقتال اذا داعيه ، فكلما نشب حرب طاروا اليها يجاهدون
بنفسهم . فكانوا بثابة الجيش العامل الواقع على قدم الاستعداد للطواري ،
ولما كثر عدد المسلمين ، وزادت الاموال في ايديهم ، ولم يبق من حاجة
الى بقائهم على هذه الحال ، اخرجهم عمر من المسجد ليكفلوا باقتسام ارزاقهم
فقد كان بينهم وبين من يترك السعي والعمل ، متوكلاً انكالاً غير مشروع ،
فرق بعيد المسافة . (الشيخ الفلابي)

للطلق والصلاح الامتناعي ، وهم المتصوفون . فالمتصوفون اذا في الصف الاول . فان اصل اسمهم صنوي ، فاستقل ذلك وجمل صوفياً . وهذا الرأي اضعف من الاول ، لا يعتمد عليه .

ولما الذين يذهبون الى انه مشتق من الصوف فهم كثيرون منهم السهر ورديه صاحب كتاب عوارف المعرف والطومي صاحب كتاب اللهم وابن خلدون . انفقوا على ان هذا الاسم اطلق على المترهددين لأنهم كانوا يرتدون الثياب الصوفية . ويستشهدون على ذلك بطبيعة هذه التسمية على الاشتغال بالغوي فنقول : تصور اذا لبس الصوف ، كما تقول تقدص اذا لبس القميص . ولهذا الرأي قيمة وزنه ، لأن العامة في جميع الامم وفي كل الازمنة يطلقون على كثير من الاشياء اسماء توافق المظاهر الخارجي . ثم ان المتصوفين لم يعرفوا بهذا الاسم الا في البلاد العربية والحدود الفارسية ، وذلك لأنهم يرتدون الصوف ، واما في داخل فارس وتركستان والمندف لهم لا يحملون هذا الاسم لأنهم لا يرتدون الصوف لهم لباساً ، فيسمون الدراوיש او القراء .

وقد عثينا بعض المستشرقين (١) على رأيه طريف نريد ان نذكره لغراحته ، وليس لموافقته للحقيقة . فهو يذهب الى ان كلمة « الصوفية » ليست سوى مجموع احرف جفرية تعني : « الحكمة الاليمية » . يرى ان مجموع الارقام التي تمثل الكلمة الاولى بطريقة حساب الجمل تعادل مجموع ارقام العبارة الثانية . وقد قلنا بهذه العملية الحسابية فاذا بالفقرة الثانية اضعاف الاولى .

ونظن انه لا يقصد كلة «الصوفية» و«الحكمة الالمية» كما ذكر ذلك بل يريد «الصوفي» و«الحكيم الالمي» ، وهما متعادلان في مجموع ارقامها . وهذه هي العملية :

الالمي	الحكيم	الصوفي
٠١ = ١	٠١ = ١	٠١ = ١
٣٠ = ل	٣٠ = ل	٣٠ = ل
٠١ = ١	٠٨ = ح	٦٠ = ص
٣٠ = ل	٢٠ = ك	٠٦ = و
٠١ = ١	١٠ = ي	٨٠ = ف
٠٥ = ه	٤٠ = م	١٠ = ي
٤٠ = ي		
٧٨	١٠٩	١٨٧

$$78 * 109 = 187$$

الصوفي = ١٨٧ ، الحكيم الالمي = ١٠٩

الصوفي = الحكيم الالمي

فالصوفي هو اذاً الذي يفترش عن الله ليجده وليتعرف اليه .
واما عرفا ان المتصوفين من عرب واجانب قد اغروا بثيل هذه المعادلات
المديدة والحسابات الجملية ، وانها انتقلت الى العبرية ، والى اليهود الذين
اشتغلوا بالفلسفة والاسحر والكمبياء القديمة ، وان ابن عربي قد استعملها في

كثير من كتبه وفي مواضع عديدة ٠٠٠ اذا عرفنا كل ذلك جاز لنا ان ننظر الى هذا الرأي بشيء من الاعتبار ٠

تقول هذا ونحن من الذين يشاركون السهر وردي وسواء من شيوخ الفاريين الصوفي القائلين بان اللغة مشتقة من الصوف ٠ وذلك للاعتبارات التي تقدمت ٦ ولغيرها من الدلائل التاريخية ٠

فقد ظهرت هذه الكلمة – كما يقول ماسينيون – في النصف الثاني من القرن الثامن المسيحي ٦ ذكرها جابر بن حيان الكوفي الشيعي الكوفي الذي كان يذهب مذهب التقشف ٠ ظهرت لأول مرة في مدينة الكوفة ٠ اما الطوسي فهو يذكر على الكوفيين وعلى بغداديين احداثها ويقول انها كانت معروفة في ايام الحسن البصري وقد استعملها في قوله : «رأيت صوفياً في الطواف فاعطيتها شيئاً فلم يأخذها وقال: معي اربعة دواينق فيكفي ما معي (١)» ويؤكد انها كانت معروفة في الجامالية وكان يستعملها المتدبرون المتبعدون للاوئنان ٠

وخلاصة القول ان المؤرخين اختلفوا في اول من استعمل كلمة التصوف وفي اصلها ٦ ولكن الثابت والمشهور هو انها انتشرت في اواخر القرن الثالث المجري ٦ وانها مشتقة من الصوف الذي كانوا يرتدونه ٠

رتب المتصوفين :

كانت العاطفة الصوفية من الروابط المتينة التي ربطت قلوب المتصوفين فجعلت منهم جماعات بعد ان كانوا افراداً متفرقين مستقلين ٠ انقسموا في

روحانيتهم واعمالهم واستعدادهم وصلاحهم وحبيهم لله الى رب ودرجات عديدة . فإذا بهم يسيرون حسب نظام دقيق يكاد يشبه ما نراه عند « اخوات الصفاء » . فهناك المريد المبتدئ ، وهناك المتردج ، وهناك درجات كثيرة متعددة تعدد الاحوال والمقامات ، وهناك الشيوخ وطبقاتهم والاقطاب الذين تفهموا حكمة الكون ، وجمعوا في صدورهم من الامرار باسم الله الاعظم . وقد اتفق اشهر المؤرخين من المتصوفين على حصر الدرجات فيها بلي :

١ - المريد ، وهو المبتدئ الذي حاول ان ينضم الى احدى الفرق المنظمة .

٢ - السالك المجرد ، لا يوُهُل للمشيخة ، ولا يقدر على بلوغها لبقاء صفات نفسه عليه . فيقف عند حظه من رحمة الله في مقام المعاملة والريادة ولا يرتقي الى مقام آخر .

٣ - المجنوب المجرد ، وهو الذي يرفع الحق عن قلبه شيئاً من الحجب ولا يوُهُل للمشيخة ، وبيقف عند هذا .

٤ - السالك المدارك بالجذبة وهو الذي ترفع عن قلبه الحجب في اول الامر ، ويتوصل الى رؤية الحق ، ويتخلص من قيود ذاته وامير صفات الجسمانية ، ويقدر ان يقول : « لا اعبد ربّا لم اره » . ثم يقوم بجميع الواجبات الصوفية دون عناء واجهاد للجسم . وهذه هي اعلى الرتب التي يقدر ان يتوصل اليها المتصوف .

في كل فرقة وفي كل حلقة متصوفون يختلفون فيما بينهم بالرتبة والمقام الحال . اما سبب كل هذه الفرق وكل الشيوخ الذين يترأsonها فهو القطب . فالقطب هو الرئيس العام لحركة التصوف في البلاد الاسلامية ،

وهو الوحيد الذي انتقل اليه العلم الحقيقي واسم الله الاعظم في عصره ، وهو الذي علم سر عالم الشهادة وعلم الامر . ولا يجوز ان يحمل هذه الامرار رجالان في عصر واحد ، لذلك لا يجوز في شرع التصوف ان يوجد قطبان في وقت واحد معاً .

ولكن ما هو اثره المباشر في كل الفرق المتعددة التي نشأت في بلاد فارس والشام والجهاز والعراق والمغرب ؟ وما هو مبلغ سلطته على نفوس المتصوفين ؟ وهل كان قادرآ على كبح جماح بعض الفرق المتطرفة ، او على تحويل مجموعها الى اهداف رئيسية دينية ؟؟

نرى انه لم يكن للقطب مثل هذه المكانة العالمية . ولم يكن مسلطا على ارادة الشيوخ ورؤساء الفرق . وإنما كان متصوفا شهيرا ، ذا علم واسع وخلق رضية وطهارة مشهورة وفعال مشكورة . اشتهر بالصلاح والتقوى والصوم والصلوة والحج الى الامكنة المقدسة وتأليف الكتب التي ثبتت الاصول الدينية والصوفية . واظهر الكرامات ونطق بالاحاديث اللدنية فإذا اجتمعت هذه الصفات في رجل واحد كانت قلوب المتصوفين تجمعا على المناداة به قطبا دون ان تسلمه زمامها ودون ان تومن له السلطة النافذة والكلمة المسنوعة في كل الامور .

شروط الارادة :

هل يقدر جميع الناس على الانضمام في سلك الجميات ؟ ما هي المؤهلات التي يجب ان تتوفر في الرجل ليقبل في صفوف المربيدين ؟ وما هي المراحل التي يتجاوزها المربي ليتوصل الى احدى الدرجات الصوفية ؟ وما هو موقفه تجاه

شيخه ورئيسه؟ وكيف يطرز نفسه من الآلام؟ .

ان شعار المربيين المبتعدين عن الدنيا المنخرطين في سلك التصوف هو ليس الخرفة . فيسعى المربي في اول امره الى شيخ فيتقرب منه ليلبسه خرقه الارادة ، و كثيراً ما يكون لونها ازرق . وقد يبدأ الشيخ فيشطب همه ويصف له ما يلاقيه في حياته الجديدة من الالم والشقاء والحرمان ، وما هو تلوك من نعيم وترف ، لأنهم لا يقبلون في عدادهم الا من اتصف بارادة جديدة لا توثر فيها مطاعم العالم ومشاربه وملذاته . وقد يكون الشيخ رفياً فيشجعه ويلبسه الخرفة وينصحه ويسيره في زهده وتعبده . ويزعم له خطة السير الى الحق ، ويقوم امامه بالفرض الديني ويعلمه كيفية القيام بكل واجب من الواجبات ، ويحمل من نفسه قدوة صالحة له .

روى ابو النعيم السهروردي شيخ صاحب كتاب عوارف المعرف وعمه الحادئة الآتية : « جاء بعض ابناء الدنيا الى الشيخ احمد الغزالى ونحن باصبهان يربى منه خرقه . فقال له : اذهب الى فلان (يشير الي) حتى يكلمك في معنى الخرفة . ثم احضر حق البـلـك اياماً . قال : نجاء الي فذكرت له حقوق الخرفة ، وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ، فاستعظم الرجل ذلك وجبن . فاخبر الشيخ بذلك فاستحضر في وعاتبني على قوله له ذلك . وقال : بعثته اليك حتى تكلمه بما يزيدك رغبة فزدته رغبة » (١)

وانما احتاز هذه العقبة ووجد من يلبس الخرفة الزرقاء ويسد خطاه فانه يعمد الى انواع العبادة والتقصيف يحاول بها ان ينفك جسمه وبظاهر روحه . فهو يتبع عن الزواج في هذه المرحلة لان ذلك يمنعه من السلوك ويدفعه الى

الانس بزوجه عوضاً من الانس باله . وقد قال ابو سليمان الداراني : «من تزوج فقد رکن الى الدنيا » وقال : «ما رأيت صبيداً تزوج فثبت على حاله الاول (١) » . ويعمد الى الجوع يحارب به الجسد ويطرد وساوس الشيطان . فإذا جوع بطنه وراض نفسه ابتعدت عنه التجارب لأن الشبع — كما يقول المتصوفون — نهر في النفس ترده الشياطين . والجوع نهر في الروح ترده الملائكة . وقد قال السهروادي : ينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف اذا كان قائماً ؟ ويعانق الشيطان شبعاناً قائماً فكيف اذا كان قائماً ؟ (٢)

ويعمد الى السهر في التعبد لأن الله يحب الساهرين المتعبدين ولأنه بطبع على قلوب المستيقظين في الاسحار فيملاها نوراً . وقد يقوم بخدمة المتصوفين في زواياهم وفي قضاة حوائجهم تقرباً من الله ومن الشيخ وتذليلاً للنفس الجائحة . ولا بد له من معاشرة الشيخ المدير لأنه لا يعرف وحده الطرق التي توصله الى غايته . فالمرشد وحده يقدر ان يخرج ما في القوة الى الفعل في روح المريد . وعليه ان يلزم السكوت ولا يقول شيئاً بمحض رغبة من كلام حسن او غير حسن الا اذا امره بذلك . فهدفه ان يصفي لما يلقيه عليه الشيخ من العطاءات والصائح . لأن الشيخ للمربيدين واسطة الامام . وقد يبلغ حب المربيدين لشيخهم الى تقديسه واحتفال الاهانات منه كما روى ذلك ابو عثمان فقال : صحيت أبا حفص وانا غلام حدث فطرديني وقال : لا تجلس عندي . فلم اجعل مكافأتي على كلامه ان اوليه ظهري ، بل انصرف امشي

(١) الفزالي : الاحياء ج ٣ ص ٨٧

(٢) السهروادي : عوارف المعرف ج ٣ ص ٣٣٣

إلى خلفه ووجهه مقابل له حتى غبت عنه . وصاحت أن احضر لنفسي بشرا على بابه وانزل واقعد فيها ولا أخرج منها إلا بأذن منه . فلما رأى ذلك مني قربني وصبرني من خواص أصحابه إلى أن مات (١)

فلا اراده للمريد اذا امام شيخه ولا سيل للوصول لله الا في ارضائه والامثال لامرة لانه اذا صحبه وتآدب بادبه يسرى من باطن الشيخ حال الى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج . فتفنی نفس المريد في الشيخ ويصبر بين الصاحب والمصحوب امتصاص وارتباط بالنسبة الروحية . ثم لا يزال المريد مع الشيخ متآدباً يتراك الاختيار وفناء الذات حتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ الى تركه مع الله . وقد بلغ المغالاة في الطاعة العميمه وتنفيذ اوامر الشيوخ الى درجة لا يتصورها العقل . كان المتصرفون بتناقلون ان على المريد ان يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الفاسد فلا يخطر له خاطر اعتراض ولو رأه قد خالف الشريعة . كل شيء يقوم به الشيخ هو مقدس . ان خالق فرعاناً او اصلاً من الاسلام فليس معنى ذلك انه كافر بل لا بد ان يكون له غرض في ذلك لا يبلغه ادرك المريد المبتدئ . فالاجلال والتقدير والطاعة العميم هي التي تؤلف الشخصية الجديدة في كل متصرف متجدد .

ينظر الى شيخه نظرته الى الانسان الكامل الوجود الذي يقدر على ا يصله الى مرحلة الكمال الاخيرة ، الى رؤبة الحق . لذلك يقول ابن عربي في معرض النصح للمربيدين : « ان طلاق شيخك امرأة فلا تتزوجها . ولا تدخل عليه الا وقبلت بيده واطرقت . ان سافر وتركك في موسم فلازم

المكان الذي كان يقعد فيه . وبادره بالسلام في كل يوم في الاوقات التي كنت تأتي اليه فيها كأنه ماغب » .

لما ان نفcker في مبلغ تأثير الشيوخ في ارادة المربي و ما يستتبع ذلك من غابات سياسية وغير سياسية واهواه يحاول ان يتحققـ الشيوخ بواسطـة مربيـ لهم (١) . فليس بالغريب ان يلعب هؤلاء المرشدون دوراً اساسياً في قيامـ الملك وسقوطـ السلاطين كما حدثـ ذلك في تاريخـ المغرب . فقدـ كانـ الامـراء والـسلاطـين يـتـقـرـبونـ منـ الشـيـوخـ ويـقـدـمـونـ لهمـ المسـاعـدـاتـ بـنـسـبـةـ تـخـتـالـفـ باختـلافـ مـقـدـارـ المـكـانـةـ الـقـيـ لـهـمـ فيـ قـلـوبـ تـابـعـيـهمـ . وـكانـواـ يـنـشـؤـنـ لهمـ الزـوـاـيـاـ والـسـكـاـيـاـ وـيـقـفـونـ لـهـمـ الاـوـقـافـ وـيـنـفـقـونـ عـلـيـهاـ بـسـخـاءـ . كلـ ذـلـكـ تـقـرـباـ منـ الشـيـوخـ ،

(١) لا ريبـ انـ هـذـهـ كـانـتـ هـدـفـ كـثـيرـ مـنـهـمـ ، فـكـانـ مـنـهـمـ المـلـاـصـ لـدـيـنـهـ وـأـمـتـهـ ، وـفـيـمـ الـمـحـدـ المـنـاقـقـ الـمـدـامـ . وـمـنـ هـؤـلـاءـ الـبـاطـنـيـةـ الـذـينـ اـتـخـذـوـاـ الـاسـلـامـ وـالـتـصـوـفـ وـسـيـلـةـ لـهـدـمـ الـاسـلـامـ وـطـحـنـ الـعـربـ . وـهـمـ — وـاـنـ لـمـ يـلـفـوـاـ كـلـ مـاـ اـرـادـوـاـ — فـقـدـ بـلـفـوـاـ بـعـضـهـ . وـمـاـضـرـ الـاسـلـامـ الاـ مـنـ صـرـفـ قـوـتـهـ فـيـ الدـيـنـ وـالـدـيـنـاـ الـىـ ضـفـ فيـ الـحـيـاـ الدـيـنـاـ باـسـمـ التـجـرـدـ الرـوـحـيـ . وـقـدـ وـرـدـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ : « وـبـنـاـ آـتـنـاـ فـيـ الدـيـنـ حـسـنـةـ وـفـيـ الـآـخـرـةـ حـسـنـةـ »؛ وـجـاءـ فـيـهـ : « يـسـأـلـكـ عـنـ الطـيـبـاتـ » . وـجـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ : « اـعـمـلـ لـدـنـيـاـكـ كـأـنـكـ تـمـيـشـ أـبـداـ وـأـعـمـلـ لـأـخـرـقـكـ كـأـنـكـ تـمـوتـ غـداـ » . (الـشـيـوخـ الـفـلـاـيـيـنـ)

واطلاةً لالستهم بالشکر والمدح (١) . ثم ان استقلال المريد وانفصاله الى طور جديد يتعلّق ايضاً بارادة الشیخ . فهو لا « ينفعه » الا عند ما « يدرك » ، وعندما يقدر ان يستقل بنفسه . اي عندما يفتح له باب الفهم من الله . فازاً بلغ المريد رتبة ازال الحوائج والفهم من عند الله فقد بلغ او ان فطامه . ولا يقدر ان يحكم على ذلك الا الشیخ الذي قام باصر تدریبه وسدّ خطأه وعلمه طرق المجادحة والمعاملة . وليس هناك ما هو اشد خطراً على المريد من ترك شیخه قبل فطامه . فانه اذا فعل ذلك يعود الى متابعة الموى ، وبناله في الطريق ما ينال المنوط به او انه في الولادة الطبيعية .

الشاعر الدينية :

الصلوة هي غذاء الروح ، كما ان الطعام هو غذاً الجسم . وبما ان المتصوفين يحاولون تقوية روحهم ونصرها على الجسم ، لذلك كان لا بد لهم من اهمال امر الطعام والتعمّل الى الصلاة .

فالصلاوة هي التي توصلهم بزبدهم ، وهي التي تربط امسهم باليومهم . وليس هناك حياة ملأى بالصلوات مثل حياة المتصوفين . فبعد ان تقرر ان يكون

(١) قد حدث مثل هذا في البلاد الهمانية التي حل فيها الفاسدون بعد جلاء الترك عنها . فقد احسنوا كثيراً الى من يدعون التصوف وزمامنة الطرق الصوفية ، وغمروهم بالمبارات والصلوات والمعطيات ، فـ كانوا اطوع لهم من الخام في الخضر . حق اذا بلغوا بهم ما كانوا يأملون اعرضوا عليهم ، لفقد الحاجة اليهم بعد ذلك « الشیخ الغلايیني »

للمسلم خمس صلوات في يومه ، اذا بالتصوفين يرون نفي ذلك اجحافاً بعاظتهم ومجاراة للجسم في كسله خالوا الا كشار منها (١) فبلغت سبع صلوات او اوراد في النهار وخمساً في الليل . وجعلوا الكل ورد منها صلاة خاصة وادعية معينة يرددوها كل صويفي في زاويته او مم جماعته .

كان التصوف يقرأ في ركعتي الفجر : « قل يا ايها الكافرون ، وقل هو الله احد » ثم يستقر الله تعالى سبعين مرة ويقول في كل مرة : « استغفر الله العظيم الذي لا الله الا هو ، الذي القيوم واسأله التوبة » ثم يسبح الله وجهه مائة مرة بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات التي هي في القرآن .

(١) الصلوات المفروضة في الاسلام خمس ، وهي التي تجب اقامتها على كل مسلم في اليوم والليلة . وهناك صلوات مشروعة تسمى « النوافل » يثاب مصلحتها على فعلها ، ولا يعاقب على تركها ، وهي تقام قبل الصلوات المفروضة وبعدها . وهناك نوافل تقام في الليل وتسمى « صلاة التهجد » . وهناك ايضاً صلوات غير معينة ولا محدودة الوقت حتى عليها الاسلام اذا وجد السلم فراغاً من وقته . فما يفعله التصوفة من كثرة الصلاة مشروع في اصل الاسلام ، وليس مما لم يشرعه ، الا اذا شغله ذلك عن امر دنياه ، فان شغله — بحسب يضره الى مد يده الى الناس — كان الواجب عليه ان يدع هذه الصلوات النوافل ليكسب بيده ما يقوم باود حياته . وقد ورد في الحديث : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ؛ ولا آخرته لدنياه ؛ حتى يصيب منها جيماً » وجاء فيه : « اليد العليا خير من السفلة » وجاء فيه : « لا تكوفوا كلاماً على الناس » وهناك كثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تؤيد ما ذكرناه (الشيخ الغلايبي)

وليس بقرآن : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وله أكابر ، واستغفر الله ، وتبارك الله (١) » وهذا احباب دعاء للمتصوفين في مثل هذا الوقت لأن النبي كان يردد هذه الكلمات كل صحي .

وبعد أن ينهي المتصوف هذه الصلوة يهرب إلى القرآن فيقرأ فيه بعض السور ويعد نفسه لصلة الفداعة في جماعة . وينظر المتصوفون إلى هذه الصلوة نظرة الاجلال ويرون أنها خير من قيام ليلة بكمالها . وعندما يقوم المتزهد بهذا الواجب يتتحول إلى ناحية من الحياة اليومية ، فاما ان يجد ذاته عسرة فيخفف عن نفسه او يرفع عنه عسرته او جنائزه فيسير فيها ، او مرضاً فيعوده او بيته فيطعمه ويواصيه . واما ان يعود إلى الصلاة اذا لم يجد شيئاً من ذلك ، فيقرأ الكتاب ويجهاد في سبيل التحرر من اسر الجسم ويفكر في حقارة الانسان وضعفه وعظمته الله وقوته وبطشه ، ويستوحى من كل ذلك خطة يسير عليها في جهاده الروحي .

وبتنتقل المتصوف من صلاة الى ثانية حق يقوم بجمعها وهي اثنتا عشرة صلاة في النهار والليل .

ولم يقف به الامر عند هذا الا كثارات ، واما احدث لكل يوم من أيام الأسبوع صلاة خاصة ، فللاحد واحدة ، وللاثنين ثانية ، وللثلاثاء ثلاثة وهكذا دواليك . ولعيد الفلافي صلاة خصوصية ولعيد الثاني صلاة ودعوات معينة ، وللسفر تقاليد في الصلاة ، وللرجوع تقاليد اخرى . ولا بد من الطعام وانتهائه وللنوم والانتباه ، ولكل فعل من الافعال اليومية صلاة . وللمسير في الشوارع دعوات يرددونها ويغمضون بها وهم سائرون . فكأننا

بالصلة فامت عند المتصوف مقام التنفس عند الانسان العادي . لا بدأ خاطرهم الا عندما يعمدون الى الرقاد ، وهذا لا يكون الا نادراً ، في مدة قليلة من الزمن .

وقد دفعهم تعدد الصلوات واقامتها في ازمنة متعددة الى التعرف على الوقت . فكان لا بد لهم من درس خصائص الظل وتقلصه وتمده واختلاف مقداره في الفصول الاربعة ، ومعرفة اوقات الشروق والزاوال ، والوقوف على احكام الليل ، وخصائص النجوم للتجدد . ولم في ذلك طرق غريبة ذكرها المكي في قوت القلوب باسهاب واطناب في الجزء الاول من كتابه .

ازاء هذه الصلوات والدعوات ناحية ثانية من المناجاة الدينية ، وهي التي يعبر عنها المتصوفون « بالذكرا » . فهم اما ان يتفرقوا افراداً واما ان يجلسوا جماعات ويعمدون الى ترديد بعض آيات قرآنية معينة يعتقدون ان لها فعلاً خاصاً في النفوس . وقد اختار معظمهم عبارة : « لا اله الا الله » . ويعتقد شهاب الدين السهروردي ان هذه الكلمة خاصة في تنوير الباطن وجمع الاهتمام اذا داوم عليها المتبع . واقتصر نفر آخر على الكلمة الاخيرة : « الله » يرددونها الى ان تتعب السنفهم وتت Insider افواههم ويحيف ريقهم فيعمدون الى باطنهم يرددون فيه الكلمة الى ان يتوصلا الى غايتها . واكتفى نفر ثالث بالقطع الاخير من الاسم يدخلون عليه الضمة والفتحة والكسرة وهم يميلون الى اليمين او الشمال او الامام : هـ هـ هـ . وقد يرافق ذكر هذه الاحرف او بعضها تلاوة القرآن بكثرة حتى تجري التلاوة على اللسان ، ويقوم الكلام مقام حديث النفس .

يعتقد المتصوفون ان في هذا المقطع قوى المية كثيرة ، فهو الذي يرفع الانسان ليضعه قرب باب ربه . وهو الذي يساعدك على اسقاط الحجب

الانسانية ، فـكأنه كلة السر المقدسة ، وكأنه رمز الروحية الصوفية .
 اذا يعمد هو لاء امتهدون الى الوحدة ، والى الصلاة في الليل والنهار
 والى الدعوات والاذكار ، والى ترديد العبارة السحرية ليبلغوا المرتبة التي
 يصيرون اليها . ونظن ان مذهبه هي الطريقة العملية الاولى التي اتبعها المتتصوفون
 المحافظون الذين ظلوا امناء لدينهم السنوي . ولكن ذلك لم يقف بهم عنده
 هذا الحد ، بل رأينا اشياء غريبة عن الدين تظهر شيئاً فشيئاً في تلك الحلقات
 الدينية ثم تصبح جزءاً منها . ولا شك في ان اول تجديد حديث في الاجتماعات
 الصوفية هو «السماع» . فقد عمدت بعض الفرق الى السماع تقرب
 به الوجود ، فحدث في البيئة الدينية ما يحدث عادة في مثل هذه المناسبات
 فهناك من حلل وهذا من حرم ، وهناك من لم يقطنم في الامر وانما جاري
 الطرين . قسم رأى فيه كما قلنا دافعاً الى الله وشجعوا على مداومة الذكر
 ويحتاج هذا الفريق بالصحابة والنبي . فقد روی عن عائشة ان ابا بكر
 دخل عليها وعندها جاريتان تغيبان وتضربان بدمفين ورسول الله مسحى
 بثوبه فانتهرا هما ابو بكر ، فكشف الرسول عن وجهه وقال : دعهما يا ابا بكر
 فانهما اباما عيد» . وفريق محافظ ناهضه بعنف وندد بالفالئين به من رجال
 الشرع الاسلامي . وليس عليك الا ان تطالع ما جاء في احياء علوم الدين
 لتقف على نظرية هو لاء الامة للسماع . فان الامام الشافعي قال في كتاب
 آداب القضاء : «ان الغناه لم مکروه يشبه الباطل ، ومن استکثر فهو
 سفيه تردد شهادته» . واما الامام مالك فقد نهى ابضاً عن الغناه وقال :
 «اذا اشتري احد الناس جارية فوجدها مغنية كان له ردتها» واما ابو حنيفة
 فانه كان يكره ذلك ويحمل سماع الغناه من الذنب . واما موقف الامام
 ابن حنبل فهو معروف مشهور . ولكن ثقراً آخر منهم الغزالى لم ينها عن

السماع بل ان مشاد الدينوري قال : «رأيت النبي في النوم فقلت له يا رسول الله هل تناكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال : ما انكر منه شيئاً ، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختبئون بعده بالقرآن (١) . ولكن السهر وردي وان جارى الغزالي في تحليله فانه يجعل له شرط طاماً منها ان لا يصير معلولاً او هدفاً توكلن اليه النفوس طليقاً للشهوات . لذلك يحرّم السماع على المربي ويرى انه لا يصح الا للتابعين . وقد قال الجنيد : « اذا رأيت المربي بطلب السماع فاعلم ان فيه بقية البطالة » . كما ان كثيرين حرموا السماع من المرد واصحاب الوجوه الصباح ، لكي لا يسترعى جمال المغني انتهاء المتصوف .

وقد تجتمع الصلوات الائتلاف عشرة والاذكار الصوفية والادوراد الالمية والاصوات السحرية ، وتربطها عاطفة رهيفة عميقة ، ولكن السكر الروحي يظل بعيداً عن النفس والصفات الجسانية تبقى مسيطرة على المربي والسلوك . تمر الساعة وال ساعتان وال ساعات والليل والنهار والجماعة في سجود وقيام ، وصلوة وغمضة ، وسماع وسمت . العيون شاحنة الى افق بعيد ، والارواح مستعدة لاقتبال الشماع المقدس ، ولكن الحق بعيد والستائر كثيرة ، والاقدام واهية ، والقوى خائرة . لذلك نرى ان الجماعات لم تكتف بما حل لها الكتاب من طرق المجادحة ، بل عمدت الى جميع الوسائل التي عرفتها الجماعات النسائية الصوفية عند جميع الامم في جميع العصور . فاذا بصوم رمضان يمتد الى ان يصبح صوم عام او صوم عمر بكامله . واذا بنا نرى كثيرين من المتصوفين يقضون حياتهم وهم لا يتقوتون الا بالذر القليل من

الطعام كأنهم لا يريدون الا حفظ الرمق في أجسامهم . وقد كانوا يتبعون في ذلك طريقتين ، فاما ان ينقصوا الاقوات في كل مرة ، واما ان يبعدوا بين الدور والدور الى ان يصبح بامكان الواحد منهم ان لا يأكل الا مرة واحدة كل ثلاثة او خمسة او ثمانية ايام . منهم من كان ينقص في كل اكلة ربع سبع الرغيف ، فيكون تاركاً لرغيف في شهر برؤاسته وتنهى فلا يوثر النقصان فيه شيئاً حتى تقف النفس على الاكل في ثلث بطنهما ، وهو ثلث اكله المعتاد . ومنهم من كان يعمل في زيادة الاوقات في آخر اكله وقتاً بعد وقت حتى ينتهي الى درجة يخشى فيها على العقل والجسم (١) . يحيى عن سهل بن عبد الله التستري انه كان يأكل في كل خمسة عشر يوماً مرة . فاذا دخل رمضان لم يأكل الا اكلة واحدة ، وكان يفطر على الماء القرابح وسده كل ليلة . ويحيى عن أبي عبيد البصري انه كان اذا دخل رمضان دخل البيت وسد عليه الباب ، ويقول لامرأته : اطرحني كل ليلة رغيفاً من كوة في البيت ولا يخرج منه حتى يخرج رمضان فتدخل امرأته البيت فاذا الثلثون رغيفاً موضوع في ناحية البيت . (٢)

وكان للصوم والجوع اثر فعال في احداث الوجد . لان الجوع بضعف الجسم ويجعل النفس في شبه غيبة ، ويهدى الخيال ، ويرهف العاطفة ، فيحدث السكر الروحاني . فان كثيرين من المتصوفين توصلوا الى اعلى درجات الوجد بعد ان امضوا زمناً طويلاً دون طعام .
قد تتجز هذه الوسائل ويسمع الله الصوات والدعوات ويسافق على

(١) راجع قوت القلوب ج ٤ ص ٤٢

(٢) الطوسي . المع من ٢٢

الصائم الساهر الغافلي في وجله ، فتنساقط الاستبار واحداً بعد واحد ويُشَعِّ نور غريب يغمره ويجعله في غيوبه تامة . فإذا بالتصوف يقف على سر الامرار ويدرك حقائق الأمور ويعرف إلى منبع الامرار ، إلى السبب الأول فيجري لسانه بكلمات غريبة ، وتعابير غير مألوفة . وينذهب به شطحه مذاهب خطرة لأن من يحيط به من الناس لا يدرك السر في ذلك . وقد كان الشطح سبباً لفتک بكثيرين من المتصوفين الذين امروا في الأحاديث الـلـدـنـيـة واظهـارـ الـقـدـرـة عـلـى الـاتـصال بـالـلـه وـنـقـل كـلـامـه او التـكـلم بـلـسـانـه .

ان ابلغ الصفحات التي كتبت في وصف الشطح هو ما كتبه ابن سينا والغزالى في رسالة الطير حيث يعرضان لاسطورة النفس التي تتوصل بعد المحاجدة إلى المثول بين بدئ الخالق . ولكن اروع ما كتب في هذه الناحية ، في التمثيل والتشبیه ، هو الوصف الدقيق الذي جاء به ابن طفيل في رسالة حي بن بقظان ، عندما تجلى الحقيقة لـهـ وـيـدـرـكـ انـالـلـهـ هوـ كـلـالـعـالـمـ . سار الزمان ، واندثرت اعيال من المتصوفين ، وجاءت اجيال جديدة امسكت هذه الناحية الروحية من الحياة باطرافها ، فقضت عليها بما ادخلته في طرقها من الشعوذات الهندية كالرقص وتزريق الشياط والسير على النيران والتعذيب واستعمال العقاقير لاحداث حالة السكر . . . خـدـ الصـوتـ الصـوـفيـ لـخـقـيقـيـ وـرـدـ النـاسـ :

أهـلـ التـصـوـفـ قدـ مـضـواـ صـارـ التـصـوـفـ مـخـرـفـهـ

طريق الحق

ان الغاية التي يسعى اليها الصوفي هي التقرب من الله والتأمل بجهاله . وقد يكتفي بعضهم بالمشاهدة فيقنع بالقليل كالمحافظين ، وقد يغالي البعض الآخر فلا يرضي الا بالاتحاد بالذات العلية . ولكن كيف يبلغ الانسان المؤلف من الروح والجسم تلك الدرجة المعلوية ؟ وما هي الوسائل التي يعمد اليها ليتوصل بواسطتها الى التأمل بجمال الله والاتحاد به ؟

كاد الفلاسفة الاشتراطيون والصوفيون يشتهر كون في الغاية القصوى من الحياة . فاتفقوا على ان المثل الاعلى الذي يسعون اليه هو السعادة . ولكن ما هو تحديد السعادة التي يحن اليها كل من الفريقين ؟

يرى الصوفيون انها بالقرب من الحق الاكبر ويرى المتفاسقوت كالفارابي واخوان الصفاء وابن سينا انها في طلب العلم لكي تصبح النفس ملكا بالفعل بعد ان كانت ملكا بالقيقة ، فتقدر ان تخيا بذاتها دون ان تحتاج في قوامها الى مادة . اتفق الفريقيان اذاً في امر واحد ، وهو شد ازر الروح بشق الوسائل ، لتقوى وتتصبح اما قادرة على مشاهدة الله ، واما قادرة على الحياة بدون مادة . ولكنها يتبعان في الوصول الى هذه الغاية طريقين مختلفين جدا الاختلاف . فيرى انصار الاشراق انه ليس من الضروري في شيء ان يعمد الانسان الى اذلال جسمه واضعافه والابتعاد عن بعض ملذات الحياة في سبيل الروح . بل يجب عليه ان يعنى بجزئيه كل المعاشرة ، لكي نطول حياة الجسم

ولكي ينسى لروح الكابة لتعلمه وتنتفع وتغدو عالمة بما لم تكن تعلمه . و تستعد الاستعداد اللازم لتصبح في عدد الجواهر المفارقة للمادة والصورة اما المتصوفون فهم على غير هذا الاعتقاد ، فيرون ان الروح هي قبس ضئيل من ذات الله . وان ذلك القبس الالمي حبس ضمن جدران اربعة ، جدران العناصر . فمن الواجب اذا ان نصف من امر هذه السجن ، ونعني على رغباته ، ونقلل من ضرورياته ، لانا كلما اضعفناه توسي فينا التعبير الروحي . وقد ساعدهم الافلاطونية الحديثة في نظرتهم هذه عندما رأوا ان افلاطين يذهب الى ان للانسان روحين او قوتين مختلفتين .

ان النبي لم يذكر شيئاً عن الروح . ولم يحاول ان يأتي بفكرة خاصة لذلك عندما قال له اليهود : « اخبرنا ما الروح ، وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ » . لم يجيبهم ، وانما انتظر الوحي ، فاذا بجبريل ينزل عليه بالآية :

« يَا أَوْنَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتِيتُ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » فوجد الفلاسفة الاشراقيون صعوبة في طرق هذا الموضوع ، لأن النبي نفسه لم يقرر ماهية النفس وتركيبها وقوتها وعذابها . فكيف يحرأون على طرق هذه النقطة الموبعة ؟

ان اول من حاول ذلك علماء التصوف ، ولكن ذلك لم يمثل من تدمس السنين وغضبهم . فقال الجيد : « الرُّوحُ شَيْءٌ أَسْتَأْثِرُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَحْوزُ الْعِبَارَةُ عَنْهُ بِأَكْثَرِ مَنْ مَوْجُودٌ » . وزاد عبدالله النباجي فقال : « الرُّوحُ جَسْمٌ يَاطِفُ عَنِ الْحَسَنِ ، وَيَكْبُرُ عَنِ اللَّمَسِ . وَلَا يَعْبُرُ عَنْهُ بِأَكْثَرِ مَنْ مَوْجُودٌ » .

ولكن جاء دور المطرفين الذين تأثروا بالمذهب الاسكندرى . فرأوا

ان في الانسان روحًا ونفساً : الروح علوية سماوية جاءت من الله وبامرها . والنفس حيوانية جسمانية تصدر منها الحركة والحس وتبعث من القلب وتنشر في تجاويف المروق ويشارك فيها الانسان والحيوان . ولكن الانسان يمتاز عن سواه بان هاتين القوتين وجدتا فيه متعددتين مجتمعتين ، وجدتا لتشددا وتقوما بوظائف الانسان كلها من حيوانية وعقلية . وهم ما تألفان - كما يقول المتصوفون - كنائف آدم وحواء . سكنت الواحدة منها الى الثانية فالاولى هي مصدر الاوضاف المحمودة والاعمال الصالحة ، والثانية هي مصدر الشرور والآثام والاصاف المذمومة .

علينا ان لا نتعجب من هذا التقسيم . فقد انتشر انتشاراً كبيراً عند فلاسفة الاشراق . وانتشر في الكتب التي وضعها الغزالى قبل ان يهتدى الى التصوف . فليس في هذا شيء من الغرابة ، لأن العرب لم يفهموا بذلك ان في الانسان روحين مترافقين مستقلتين . بل تمثلاً وجودهما كاما نتمثل نحن في الوقت الحاضر القوى العاطفية والعاقلة والارادية في علم النفس الحديث فإذا ما انصرف المتصوف الى اضعاف جسمه والقضاء على نزعاته ، فهو يخمد النفس ، وبضعف امرها ويساعد في ذلك على نقوبة الروح التي تحاول ان ترتفع الى خالقها والرجوع الى مكانها الاول

ولكن ما هي الوسيلة التي بلتجي اليها الصوفي ليبلغ هذه النهاية ؟ هل يجاري المخالف في طلب العلم ؟ ام يذهب غير مذهب ؟ هنا يفترق الرجال في يعتمد الفيلسوف الاشراقي الى درس ما اثر عن الاقدمين من علوم وفنون استعداداً لاستقبال العقل الفعال ، بينما يعتمد المتصوف الى حياة الزهد والتقطف والتمبد في الروايا يجتاز المقامات والاحوال ليتوصل الى خالقه . وقد اشار الغزالى الى هذا الاختلاف في كتاب « ميزان العمل » . فهو

لا يجذب الطريقة الصوفية التي لا تعتمد على شيء من المبادئ العلمية . فغيري ان من واجب الانسان ان يطلب العلوم المنتشرة ثم يتذكر العلم الخارجي . لان ذلك الاستعداد الاولى يهدى له السبيل ، وبعده لفهم اشياء كثيرة قد لا يفهمها اذا خطرت له في مقاماته واحواله . فيقف في وسط الطريق دون ان يصل غابته . اما اذا استعد الاستعداد الكافي فقد يصل غابته بوقت قريب وبمحادثة قليلة . ويروي الفزالي مثلا طريناً على ذلك : فقد حكى ان اهل الصين والروم تباهاوا بحسن صناعة النقوش والتصوير بين بدئ بعض الملوك . فاستقر رأي الملك على ان يسلم اليهم صفة ينقش منها اهل الصين منها جانبًا ويرغب في نسخة حجاب ، بحيث لا يطلع كل فريق على صاحبه . فاذا فرغوا رفع الحجاب ونظر الى الجانبين وعرف رجحان من رجح من الفريقين . ففعل ذلك ، فجمعت اهل الروم من الاصباغ الغربية ما لا ينحصر ودخل اهل الصين وراء الحجاب من غير صبر وهم يجلون جانبهم ويصدقونه والناس يتعجبون من تواناتهم في طلب الصبغ .

فلا فرغ اهل الروم ادعى اهل الصين انا ايضاً قد فرغنا . فقيل لهم : كيف فرغتم ولم يكن معكم صبغ ولا استغلتم بنقوش . فقالوا ما عليكم ، ارفعوا الحجاب ، وعلينا تصحيف دعوانا . فرفعوا الحجاب واذا بجانبهم قد تلاًلاً فيه جميع الاصباغ الرومية الغربية لانه كان قد صار كلمرآة لكثرة التصفية والجلاء . فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء ، وظهر فيه ما سمي في تحصيله غيرهم (١) .

(١) الفزالي ميزان العمل : ص ٤٦
الاحياء ج ٣ ص ١٩

يرى الفزالي ان المتصوفين اذا فملوا ماما لهم الصينيون او ما فعل الاشرافيون
في سقل نقوسهم بالعلوم المعروفة ، فان هذه النقوس تكون مبريئة القبول
لما يعرض لها من نقش الله فيها .

ان ما نزيد ان ثبته في هذه الكلمة هو ان المتصوفين لم يقرروا بالعلم النقلي
والاخباري واجروا على ان الانسان يقدر ان يتوصل الى العلم اذا اتبع
طريقتهم وسار على خطتهم وقلدهم في حياتهم وسار في طريق المقامات
والاحوال . وهذا هو الاختلاف الاسامي بين الطريقة الاشراوية والطربة
الصوفية .



المقامات والاحوال

حاول كثيرون ممن عنوا بامر التصوف ان يجدوا المقام والحال ، وان يفرغوا عنها . ولكنهم لم يوفقا كل التوفيق في ذلك لأن الشيوخ انفسهم اختلفوا في التعريف لتشابهها وتداخلها . فتراه يشي بالبعض حالاً وتراه يلبي بالبعض الآخر مقاماً^(١) . فقاوموا ان الحال ممّي حالاً لتحوله . والمقام مقاماً لشيوهه واستقراره . وقال آخرون : ان الشيء يكون بعينه حالاً ثم يثبت في صير مقاماً . وقال آخر ان الاول موهبة من الله . والثاني مكتسب بالاعمال . وهذا مما يوضح لنا بعض الاباضح المرافق التي يمتازها التصوف ليصل الى الله .

لتتمثل انا سائرون في احد شوارع المدينة . وانا وجدنا في احد المنعطفات اعمى فقيراً يستجدي اكف المحسنين . ولتتمثل انا ايضاً اغنياء . فقد يلمع في خاطرنا بارق الاشراق على المستجدي المسكين ، والكتابات اتابع طريقنا ونسبي بعد خطوات قليلة ذلك الاعمى . فان ذلك الخاطر الذي من في نفستنا يجعلنا نشفق ولكن لم يدم الا لحظات قليلة هو حال .

(١) راجع السهوردي عوارف المعرف ج ٤ ص ٤٤

على هامش الاحياء

ثم لنتمثل نفسنا انا اجتازنا تلك الطريق مرّة ثانية، وصادفنا ذلك الرجل فوقفنا نتأمله وقد ثار الاشواق في صدورنا ، فقلنا : لا بد من ان نساعدوه ان نجد له يد المعاونة . فقدنا الاعي الى منزلنا وجعلنا له مكاناً اميناً يجده فيه ما يحتاج اليه وانصرفنا الى العناية به وتسهيل الحياة له . فان العاطفة التي مرت سرعاً في اول الامر استقرت واصبحت مقاماً بعد ان كانت حلاً .

ولنأخذ مثلاً ثالثاً اكثراً اقطاباً على الصوفية ، ولنتمثل رجلاً عاش في الارض فساداً وكثرت شروره فسفك الدماء واستباح الاموال والنفوس . فان هذا الرجل اذا ما خلا الى نفسه في احد الايام قد يشعر في ضميره بمحاسن يدفعه للهرب من هذه الحياة والرجوع الى الصلاح والتکفير عن الذنوب . ولكن هذا الصوت الخافت بتلاثي بعد لحظة ولا يبقى له اثر في نفس الجرم المخترف . ولتكنه قد يعود الى الظهور ، ولا يمر مرّاً سريعاً بل بلع عليه ويسكته ، ولا يغادره الا وقد افتحت الرجل بترك ما هو عليه من حياة الشقاوة . وبعد ان كانت داعية الصلاح حالاً تلمع كالبرق الخاطف في خاطر الرجل اصبحت مقاماً له ، تكيف شخصيته ، وتنظم اخلاقه وحياته ، ليقوم بجميع امورها .

لا شك في انا ادر كنا من المثلين السابقين ان الحال لا يتعلّق بالانسان بل هو وسي من الله ، وهم في الضمير يهمسه الله في من يشاء ، وينعمه عنمن يشاء . وان المقام لا يتأتى للانسان الا بعد التعب والعناء ، وان الرجل لا يتوصّل الى احد المقامات الا بكده وعمله وثبات ارادته وصدق عزيمته . ففستنقح من كل ذلك ان الاول موهبة والثاني اكتساب بالاعمال .

ولكن المتصوفين ذهبوا مذهباً قد يخالف الاسلام بعض المخالفات ، وهو زعمهم ان الله ينعم على المتراهدين غير فهم اليه دون ان يجاهدوا ويتبعوا طريق

المقامات . فهم ينتقلون من حال الى حال الى ان يصلوا الى المرتبة الاخيرة ، الى رؤبة الله والفناء فيه . فلما تصوفين اذا طريقان مختلفان لبلوغ غايتهم حسب استعدادهم الذافي وشفاق الله عليهم: طريق التكشف او طريق الالم .

المقامات :

اختلف المؤلفون الصوفيون في عددها وتحديدها وترتيبها وقيمتها ونفيتها . حتى كاد الباحث الحديث يضل بين انكارهم واثباتهم ونفيتهم وزائهم . فاذا بعضهم يكاد يبلغها الخمسين ، واذا بالبعض الآخر يقف عند خمسة مقامات . اما نحن فاننا شارك الطومي في رأيه لانه توسط بين الاقلال والاكثر بجعل المقامات سبعة هي : التوبه والورع والزهد والفقر والصبر والتوكّل والرضا . ومنحاول شرح هذه المقامات معتمدين في ذلك على اشهر الكتب الصوفية (١) :

(١) منها :

Louis Massignon Al Hallaj , Martyr Mystique de l'Islam 2 vol .

R . A . Nicholson the kitab Al - Luma fil Tasawwuf- Lyden 1914 مطبوعة لينكولن

L . Massignon Essai sur les origines du Lexique technique de la mystique musulmane Paris 1922

Miguel Asin Palacios : La Mystique d'Al-Gazali 1914

الاحياء لاغزالى
قوت القلوب للمكي
الرسالة الفثيرية

١ - التوبة :

ان للتوبة اسبابا وترتيبا واقساما . فاول ذلك انباء القلب عن رغبة الفضة ورؤبة الانسان ما هو عليه من سوء الحالة . لا يتوصل اليها الا بالاصفاء الى ما يخطر بباله من زواجر الحق . فيستعد لاسباب التوبة ويهجر اخوات السوء . لانهم يحملونه على التراجع عن غايته . اما اذا عزم الانسان على التوبة ولم يتم له ذلك فمن الواجب ان لا يقنط من رحمة ربه وان يعيد الكرة . قبل ان ابا عمرو بن نجید اختلف في ابتداء امره الى مجلس ابي عثمان فاثر كلامه في قلبه فتاب . ثم انه وقعت له فترة فكان يهرب من بي عثمان اذا رأاه وينظر عن مجلسه . فاستقبله ابو عثمان يوماً فحاد ابو عمرو عن طريقه ، وسلك طريقاً اخر ، فتبمه الشیخ فما زال يقفوا اثراً حتى لحقه . فقال له : يا بنی لا تصحب من لا يحبك الا معصوما . انا ينفعك ابو عثمان في مثل هذه الحالة . قيل كتاب ابو عمرو بن نجید وعاد الى الارادة ونفذ فيها (١)

والتوبة هي اصل كل مقام . وهي بثابة الارض للبناء . فمن لا ارض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا مقام له . يتقدمـا في نفس المؤمن امران يجعلانها تستقر لتصبح مقاما ثابتاً : او لها معرفة الذنوب وما تفعله بالنفس ، وكيف تفصل بين الانسان وبين (نحوه) . فاذا عرف ذلك تألم وندم على ما فات . وثانية ما يستتبع ذلك الندم من عزم صادق على ملافة الخطأ الذي وقع منه وعمل صالح في الحاضر والمستقبل .
ولا تقف التوبة عند هذا بل تستتبع أحوالا ثانوية لا ثبتت بذاتها ،

اولها المحاسبة ، فقد قال الامام علي : « حاسبو انفسكم قبل ان تخاسبوا » وزنوها قبل ان توزنوا » فالمحاسبة هي في ضبط الحواس ورعاية الاوقات وعد الذنوب والاستغفار عنها . فقد كان بعض المحاسبين يكتب الصوات الخمس في قرطاس ويبدع بين كل صلاتين فراغاً . وكلما ارتكب خطيئة وضم خطأ . وكما تكلم او تحرك فيما لا يعنيه نقطه ، ليعتبر ذنبه وحر كاته ولتضيق المحاسبة بجال الشيطان . فإذا ناب المرء توبة صادقة واتبعها بالمحاسبة والمرافقة عصم عن مخالفة اوامر الله . وقد قيل لا يكون المربي مربداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال (الملك المحاسب) شيئاً عشرين سنة . ولا يلزم من ذلك وجود المقصدة ، ولكن الصادق النائب اذا ابتلي بذنب ينجمي اثر الذنب من باطنها لوجود الندم في نفسه .

٢ - الورع :

قال الشبل : « الورع هو ان تتورع ، ان لا ينشت قلبك عن الله طرفة عين » . وقال : « الورع ان تتورع عن كل شيء سوى الله » . وقال آخر : « الورع على وجهين : ورع في الظاهر وهو ان لا تتحرك الا الله تعالى ، وورع في الباطن وهو ان لا يدخل قلبك سواه تعالى » . قال كهومس : « اذا ثبت ذنبي ابكي عليه منذ اربعين سنة . وذلك انه زار في اخر لي فاشترت بدانق سكة مشوية ، فلما فرغ اخذت قطعة طين من جدار جاري حتى غسل يده . » واستأجر النجعي دابة فسقط سوطه من يده ، فنزل وربط الدابة ورجع فاخذ السوط . فقيل له : لو حوت الدابة الى الموضع الذي سقط فيه فاخذه . فقال استأجرتها لامفي هكذا لا هكذا . ورؤي سفيان الثوري

في المقام وله جناحان يطير بهما في الجنة من شجرة الى شجرة . فقيل له : هم نلت هذا ؟ فقال : بالورع . وتكلم ابو سعيد الخراز في الورع ، فر بـه عباس ابن المحتدي . فقال له : يا ابا سعيد اما تستحي ؟ تجلس تحت سقف ابي الدوايني وتشرب من بركة زبيدة وتعامل بالدراما المزيفة وتتكلم بالورع .

ولا تسل عن حوادث المتهوفين في هذا المقام . فقد كانوا يتبارون في المحب الغريب . ويبنهم الصادق الذي يتحدد وجهه من البكاء على ذنب تافه اقرفه . ومنهم من لا يخشى اقتراف الجرائم في الخفاء ، والظهور امام الناس وهو يغضّم بالأيات القرآنية والاحاديث النبوية والروايات الدينية .

٣ - الزهد :

ان الزاهد هو كل من باع الدنيا بالآخرة . لان اعراض الدنيا زائلة وامور الآخرة باقية خالدة . فالدنيا ثلوج موضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى التلاشي ، والآخرة جوهر لا فاء له . فليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء واستالة القلوب ، فهذا من العادات الحسنة ، ولكنه لا يدخل في العبادات . وانما الزهد ان تترك الدنيا وانت تعلم حقارتها اذا اضفتها الى نفاسة الآخرة : والزاهد هو من انته الدنيا وهو قادر على التنعم بها قدر كها خوفاً من ان يأنس بها ، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لغيره فقد قال النبي (ص) : من اصبح وهمه الدنيا اشتت الله عليه امره ، وفرق عليه ضياعه وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له . ومن اصبح وهمه الآخرة جم الله له ، ومحظ عليه ضياعه ، وجعل غناه في قلبه

واته الدنيا وهي راغمة ٠ »

تحتفل درجة الزهد وقيمه باختلاف الاستعداد النفسي ٠ فالدرجة الأولى تقوم في النفس التي تزهد في الدنيا وهي تتوقف عنها وتحيل إلى لذائذها ولكنها تتجاهد هذا الميل ٠ وهذا هو تزهد من يعمل ويتمهد للتوصل إلى هدفه ٠ والدرجة الثانية تتحقق عند من يترك الدنيا طوعاً ، لا انتقاماً إياها أمام ما طمع فيه ٠ كذلك يترك درهماً لأجل درهمين ٠ فإنه لا يشق عليه ذلك وإن احتاج إلى الانتظار ٠ ولدرجة الثالثة وهي أفضليها واستيعابها تتم في العبد الذي يزهد طوعاً ، ويزهد في زهده إذا أنه لا يرى أنه ترك شيئاً بعد أن ادرك حقارة الدنيا ٠ كمن ترك خزة وأخذ جوهرة ٠

يرى مؤرخو التصوف على أن المرء إن يحكم اسمه في الزهد ، لافت حب الدنيا رأس كل خطبته ٠ ولأن الزهد هو رأس كل خير ٠ قال يحيى ابن معاذ : « الدنيا كالعرس ٠ ومن يطأها ما شطتها ٠ والزاهد فيها يسخن وجهها ٠ وينتف شعرها وينحرق ثوبها ٠ والعارف مشغول بالله لا يلتقط إليها» (١) وكان الصوفيون يتناقلون حديثاً يقول : إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكاً يغرس الحكمة في قلبه ٠ ولا يقصد من الزهد حسب اعتقادهم سوى كمال الفراغ المستمدان به على دوام العمل لله ٠ لأن التعلق بال المادة مما يقصي الإنسان عن خالقه ٠

٤ - الفقر :

قال ابراهيم بن احمد الخواص : « الفقر رداء الشرف » ولباس المرسلين ، وجليب الصالحين ، وتاح المتقين ، وذين المؤمنين ، وغنية العارفين ، ومنية المربيدين ، وحصن المطهعين ، وسجن المذنبين ، ومكفر للسيئات ، ومعظم للحسنات ، ودافع للدرجات ، ومبليغ الى الغايات ، ورضا الجبار ، وكرامة لاهل ولايته الابرار (١) ». ولكن الفقر ليس واحداً عند جميع التصوفين فهو مختلف في كل فرد منهم . فان من الفقراء من لا يملك شيئاً ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من احد شيئاً ولا ينتظر من احد مساعدة . وان أعطى لم يأخذ . فهذا مقامه مقام المقربين . سأله ابو بكر الزفاق ابا علي الروذباري : لم ترك الفقراء اخذ البلة في وقت الحاجة ؟ قال : « لأنهم مستغبون بالمعطي عن العطا » . و منهم من لا يملك شيئاً ولا يسأل احداً ، ولا يطلب ولا يعرض . وان أعطى شيئاً من غير مسئلة اخذ . فقد قال الخواص : علامه الفقيه الصادق ترك الشكوى واغفاء اثر البلوى . و منهم من لا يملك شيئاً ، و اذا احتاج انبسط الى بعض اخوانه من يعلم انه بفرح بانبساطه اليه . وقد طلب التصوفون الفقر لانهم كانوا على ايمان ثابت بان النبي فضل الفقر على الغنى وانه قال للبلال : « الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً » . وقال في معرض حديث له : « يدخل فقراء امتي الجنة قبل اغنيائهم بخمسائة عام » . وقد روی عنه انه اشرف في احد الايام على الجنة فرأى اكثر اهلها الفقراء . و اشرف على النار فرأى اكثر اهلها الاغنياء . وروي عن عائشة انه اتاهما

الف درم من العطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها . فقالت خادمتها ما استطعت فيها فرقت اليوم ان تشتري لنا بدرم ثم نظر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت .

فقد حاول المتصوفون — كما رأينا في فصل سابق — الاقداء بالنبي والقربين اليه . لذلك يرى أن تاريخهم ملؤ بالكره للمال والفن . وإن كثيرين منهم لو أرادوا جمع الاموال لكن لهم ما يشاؤون . ولكنهم آثروا الفقر لأنهم رأوا أن الفن الحقيقي ليس في جمع المال بل في القرب من الله . ولا مجال لذكر اخبار المتصوفين الذين انفقوا ما يملكونه على الناس لينصرفوا الى التبعيد ، وإنما نكتفي بذكر اسماً ابراهيم بن ادhem وابالامام أبي حامد الغزالى .

٥ — الصبر :

ولكن التوبة والورع والزهد والفقر لا يتم للمتصوف الا اذا عرف كيف يصبر على مصائبها ، وكيف يتحمل العوز والتكمبات . فهو يصبر عن الشتم بالحياة ولذائذها . وبصبر على بوسيه ، فلا يظهر تذمراً ولا تأفلاً وإنما ينفي في بلواه ويستقبلها بشغف يامن وصدر رحب . فإن أحد المتصوفين امخى القسم الكبير من عمره وهو عاجس الوجه ، ولم يره أحد مبتسمًا الا عند وفاته أحد أولاده . وإن ذا دون المصري كان يرى ان الصبر الحقيقي هو في تپيرع غمض البلية واظهار الغنى مع حلول الفقر . لانه يدرك ان ما ينزل على الناس من المصائب ليس الا بارادة الله الذي يحاول ان يتيح لهم ويدرك صدق محاجتهم له . مما يروى ان الشبلاني الصوفي المشهور سبس وفتا في

الмарستان . فدخل عليه جماعة من اصحابه . فقال : « مزانتم ؟ قالوا : احباوك ، جاؤوك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجارة ، واخذوا بهربون . فقال : يا كذابون ، لو كنتم احبائي لصبرتم على بلائي (١) » ازاء هذا الصبر الذي يمتاز به المتصوفون ، وهذه البسمة الراضية التي يقابلون بها ما يلاقون في حياتهم من الصعوبات حنين وشرق الى كائن لا صبر لهم عنه ، هو الله . فهم يقولون في ذلك :

.. والصبر عنك فندموم عواقبه والصبر في سائر الاشياء محمود
وقال آخر :

الصبر يجعل في المواطن كلها الا عليك فانه لا يجعل
وادا بالنفس الخائرة بين الحب والشوق والصبر تردد :

صبرت ولم اطلع هو الا على صبري
وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة ان يشكوا ضميري صبابتي
الى دمعتي سراً نتجري على خدي

٦ - التوكل :

فالمتصوف اذاً يصبر على بلواء لأن الله هو سبب كل ما يحدث في هذا العالم ، فيلقى بأمره على ربه ، يتصرف به كما يشاء ، فالله هو الذي يوحى اليه بالمحصال الحميدة التي يتوصل إليها بالعمل والاجتهاد . والله هو الذي يهذب نفسه ويعدها للمثول بين يديه طاهرة نقية . وهو الذي يرزق الحيوان والانسان . فلا يفكر بأمر معاشه ولا بعده . فقد خرج أحدهم إلى بعض الصحاري فرأى قبرة عمياء عرجاء ضعيفة . فوقف متعجبًا منها متفكراً فيما نأى كل لعجزها عن الطيران والمشي والرؤية . وبينما هو في تأملاته العميقه اذ اشقت الأرض وخرجت سكرجتان في أحداهم سسم نقي وفي الأخرى ماء صاف . فأكلت من السسم وشربت من الماء ، ثم اشقت الأرض وغابت السكرجتان .

فهم اذاً في حياتهم يتوكلون على الله ويتحققون في أنفسهم قول النبي : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خاماً وتروح بطاناً ». ولا شك في ان مقام التوكل هو من اشد المقامات اثراً في النفس ، لأن المتصوف يتناهى فيه حاجاته ، وينهي ذاته وارادته ويصبح بين يدي خالقه مثل المائت بين يدي غاسله . فان كثيرين من المتصوفين كانوا يتيمون في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله عليهم في تقويتهم على الصبر اسبوعاً واكثر ، او تيسير حشيش لهم او قوت ، او تثبيتهم على الرضا بالموت ان لم يتيسر شيء من ذلك . قال ابراهيم بن ادhem : سألت بعض الرهبان ، من ابن

تأكّل فقال لي : ليس هذا العلم عندي ، ولكن سل ربي من اين يطعنني (١)

٧ - الرضا :

اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا . هل هو من الاحوال ام من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات . وهو نهاية التوكل . يتوصل اليه المتصوف باكتسابه وعمله . وقد جرّاهم الطوسي في هذا المذهب وأما العراقيون فذهبوا إلى أن الرضا من جملة الاحوال . ويرى القشيري انه من الممكن الجمّ بين الرأيين . لأن بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات . ونهايته من الاحوال . واختلف المتصوفون أيضاً في تحديده . فمنهم من رأى فيه رضا الله على عبده ، ومنهم من رأى فيه رضا العبد على خالقه . ولكننا ندرك من ذلك أن القسم الأول ليس من المقامات ، فلم يبقَ امامنا سوى الرأي الثاني . ولا يتوصل المتصوف إلى هذا المقام إلا بقول تقدير الله دون اعتراض على ادواره وقضاءه .

ولكن جميع الذين كتبوا في التصوف من القدماء يكادون يجمعون على ان هذا المقام هو آخر المقامات التي يقدر ان يتوصل إليها العبد باعماله ، فهو كالباب للجنة . فلا يكاد العبد يرضى على خالقه حتى يرضى خالقه عليه . قال تلاميذ متصوف لاستاذه : هل يعرف الانسان ان الله راض عنه ؟ فقال : لا . كيف يعلم ذلك ورضاه غير ظاهر . فقال التلميذ : الولي يعلمه ذلك . فقال : كيف ؟ اجاب : اذا وجدت قلبي راضيا عن الله علمت انه راض عنني . فقال الاستاذ : احسنت يا غلام .

الاحوال :

ان الاحوال التي تحل قلب الصوفي كثيرة . تختلف قوة وضفافا باختلاف الافراد واستعداد النفس . واهما المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجل والشوق والانس والطمأنينة والمشاهدة واليقين . فان الصوفيين الذين يقدر لهم ان يتبعوا الاحوال في طريقهم الى الحق هم دون شك من المهووبين الذين لا يمانعون الاحوال في حياتهم الزهدية .

١- المراقبة والقرب :

تقسام المراقبة الى قسمين مختلفين : الاول يتعلق بمراقبة الاعمال التي يقوم بها الانسان لأن الله حاضر في كل مكان ، وافق على كل ما يجري في العالم . فقد حكي انه كان لبعض المشايخ من المتصوفين تلميذ شاب يكرمه ويقدمه . فقال له بعض اصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحوه شيوخ . فدعاه بعدة طيور واعطى كل واحد منهم طائراً وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه فيه احد . ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له ما قال لهم . فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ، وربيع الشاب والطائير حي في يده . فقال الشیخ : مالک لم تذبح کما ذبح اصحابك؟ فقال : لم اجد موضعاً لا يراني فيه احد اذ الله مطلع علي في كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حق لك ان تكرم .

واما الثاني وهو الامر ، فهو مراقبة الله ، فيحييا الصوفي في شبه غيبوبة عن العالم ، مراقباً جمال الله فلا يبقى في قلبه مجال للالتفات الى الدنيا . فقد

يغفل عن المطلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ^٦ ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به . وقد ير على اصدقائه فلا يخاطبهم حتى كان احدهم يقول لمن يماته في هذا الامر : اذا مررت بي فحر كني . روى بعض الصوفيين قال : مررت بجماعة يترامون واحد جالس بعيدا عنهم . فتقدمت اليه فاردت ان اكلمه . فقال : ذكر الله اشهر . فقلت : انت وحدك ؟ فقال : معي ربى وملكاي . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : اين الطريق ؟ فشار نحو السماء وقام ومشى وقال : اكثر خلقك شاغل عنك (١) .

فان الصوفي اذا توصل الى هذه الدرجة من المراقبة فلا شك في انه يشعر بقرب الله منه وبقرب نفسه من الله . وتکاد تؤدم هذه الحال الى نوع من الحلوية الفلسفية ، لأن الذروة العليا منها هي ما يقوله ابو يعقوب السوسي : « ما دام العبد بالقرب لم يكن قرب . حتى يغيب عن القرب بالقرب » . وما يقوله عاصم بن عبد القيس : « ما نظرت الى شيء الا رأيته الله اقرب اليه مني » .

٢ - الحبة والخوف :

اما الحب فهو اشهر الاحوال التي تمر في قلب المتصوف ، والتي تتفى بها الشعرا و الشواعر من رابمة الى الحلاج الى ابن الفارض . والحبة والخوف حالان متقابلان ، لأن القرب يقتضي حالين : فمن الصوفيين من يغلب عليه

الخوف عند نظره الى قرب الله منه . و منهم من يغلب عليه الحب . والحب في الاحوال كالنوبة في المقامات . فلا يبقى للحب من غاية سوى التوصل إلى حبيبه ، فيصدق عن امور الدنيا وخدعها ، ويصرف إلى الاعمال الخيرية التي تبلغه غايته . فقد كانت رابعة المدودية تنشد :

نuchi الاله وانت ظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لاطفته ان الحب لمن يحب مطیع ..

ويمحاول المتتصوف ان ينتقل من الحب النظري إلى الوصول إلى الله ليتحقق قوله : « فإذا أحببته كدت له سمعاً وبصراً . » وفي هذه الحال يسأل الله نفوس محبيه بالطهارة وينخلع عليهم الصفات السامية والأخلاق الشريفة . فالمحبة اذا هي اساس الاحوال ولا تخوب الا الله وحده . « وان من احب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك بجهله وقصوره في معرفة الله تعالى . وحب الرسول محمود لأنك عين حب الله تعالى . و كذلك حب العلماء والأنبياء لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب . وكل ذلك يرجع إلى الأصل . فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر الا الله (١) »

واما الخوف فانه يحدث اذا شاهد العبد من ربها عظمة وهيبة وقدرة ، ولم يفطن الى العطف واللطف والاحسان والمحبة للعباد . فتضطره اعصاهه وتشور نفسه ، ويبرم بالحياة . وينتشر على نفسه ان لا تبلغ الكمال ولا تناول المرتبة السامية . وان ينالها العقاب عوضاً عن الشواب ، والنقم مكتف النعمة . فلا يهنا له عيش ولا يقر له قرار . وقد دفع الخوف كثيرين من

المتصوفين الى ان يهجروا الناس ويعيشوا في البراري والقفار ، والى النهول والنحو ل حتى كانوا يتمثلون بقول الشاعر :

لو ان ما بي على صخر لانحالمه فكيف يحمله خلق من الطين ؟
٣ الرجاء والشوق :

ان الخوف من عقاب الله يدفع المتصوف اما الى النهول والرهبة ، واما الى القنوط والامتناع عن العمل . واما الرجاء فهو على خلافه ، لانه يجعل للعبد رغبة في الاجتهد لتحقيق بنيته ، كما انه يدفعه في كثير من الاختيارات الى شيء من التهاون في واجباته لانه يدرك ان الله غفور رحيم فيرجو عفوه وشفقتة . وقد صدق ابو علي الروذباري عندما قال : « الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر اذا استوى الطير وتم طيرانه واذا نقص احدهما وقع فيه النقص ، واذا ذهبما صار الطائر في حد الموت (١) ». وروي ابانت ابن ابي عياش في النوم ، وكان يكثر ذكر ابواب الرجاء . فقال : اوقفني الله تعالى بين يديه فقال : ما الذي يحملك على ذلك ؟ فقلت : اردت ان احببتك الى خلقك . فقال : قد غفرت لك .

واما الشوق فلا يتم الا للذين تثبت المحبة في قلوبهم . فيشتاقون الى التعرف الى صفات الله واسرار جماله وقوته . فقد قال احدهم : « الشوق ثمرة المحبة . فمن احب الله اشتق الى لقائه . » فكأن هذه الحال نار يشعليها

الله في قلوب أوليائه حتى يحرق بهما ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والرغبات (١) .

٤ - الانس والطمانينة :

لا يتم الانس الا للموهوب المقرب ، فغيره هذا الحال عن العالم الحسي الى العالم العقلي . وبقربه من الله ، ويأخذ المتصوف بالتدبر عند يقظته ورجوعه الى العالم الارضي . ولا شك انه لم يبلغ هذه الرتبة سوى نفر ضئيل لأنها تكاد تجعل منهم اندادا لله فيتحدثون اليه ، ويتحدثون اليهم . لذلك قيل :

**الانس بالله لا يحييه بطال وليس يدر كه بالحول متحمال
والآنسون رجال كلهم نجح وكلهم صفوة الله عمال**

فإذا دام هذا الحال بصبع مقاماً ويعقبه انبساط في الحديث والاقوال والافعال . وقد تكون هذه الاقوال مما لا يتحمله الناس ولا يطيقون سمعه لما فيه من الجرأة . ولكن الغزالي يرى أن ذلك محتمل من ثبت في الانس . وأما من لم يقم فيه وحاول التشبه بالصوفيين الحقيقيين في القول والفعل فإنه يهلك ويشرف على الكفر . وهذا ما حدث لكثيرين من المتطرفين الذين هلكوا عند ما جعلوا أنفسهم في مصاف الله وفوق الانبياء .

اما الطمانينة فهي اقل تطرفا من الانس . فيطعن العبد الى زبه في دعوة وسلام . ويسلم له القياد ، ولكن بظل بعيداً عنه بعض البعد متأنلا

بجهاله اللامتناهي وهيبته السامية . وَكَأْنَا بِهَذِهِ الْمَالِ وَتَفَعَّلَ الْمَانِظِينَ
الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ يُؤْمِنُونَ بِإِنَّ الاتصال بالله مباشرة في العالم الارضي ليس من
الامور البسيطة على البشر ، وان كانوا في الدرجة العليا من الكمال النفسي
والاستعداد الذاتي .

٥ — المشاهدة واليقين :

ان الذين يصلون الى حال المشاهدة نادرون ، عليهم ان يغروا باشارة
الدرجات السابقة ، وان يجعل الله في قلوبهم شعلة المعرفة . فيشاهدون الله في
قلوبهم ويشاهدونه في خلقائه ومصنوعاته « فَالخَالقُ فِي قُبْضَةِ الْحَقِّ وَفِي
مَلْكَهُ ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْمَشَاهِدَةُ فِيمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ لَا يَبْقَى فِي مَرْءَهُ وَلَا فِي
هُمَّهُ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى (١) »

اما اليقين فهو اسمى من المشاهدة . فيقوى الایمان في نفس الصوفي
ويستولي على جسمه وخواطره حتى يرى الحق بقوة ايمانه رؤية العيان .
فيبلغ عندئذ الدرجة القصوى من كمال العلم ، ويقعم قلبه سروراً وشوقاً الى
دوس الرؤية ، فيصير البلاء عنده نعمة والرخاء مصيبة . ويقف على جميع
صفات الله واسمائه الحسنى التي تفتح المغلق من اسرار الكون .

.....

هذه هي المقامات والاحوال الاساسية التي يمر بها المتصوفون . وكل
واحد منها يتشعب الى فروع عديدة يطول البحث فيها وفي التفريق بينها .

ولكنه قد تبين لنا من هذا التحديد الذي عمدنا اليه ان للوصول الى الحق طريقتين مختلفتين عند الصوفيين انفسهم : الاولى لا يجوزها الا كل من اتقى عمره في امور الدين واضعف جسمه بالتوبه والزهد والصبر والتوك لينتوصل الى المرحلة النهاية ، ولكنها لا تخول العبد رؤية خالقه في العالم الارضي ، وإنما تعده للمشول بين يديه في الآخرة . والثانية يجوزها من انعم الله عليه بالحب فقربه اليه وسفر له عن وجهه ، فالاولى هي طريقة التوبة ، والثانية طريقة الامان والاتحاد .



ابن عربی^(١)

حياته :

ابن عربی من اکثر المتصوفین انتاجاً . ينفق الدارس في قراءته ثلاثة اشهر ونيف دون ان يأتي على مؤلفاته الكثيرة وكراساته الصغيرة ، حيث يعرض لاعومن النظريات الفلسفية ، وادق المذاهب الصوفية ، ودون ان يطالع اخلاقات العديدة التي كتبها لمصنفاته . ولكن كل تلك المؤلفات لم تزد في ايضاح مذهبة بل زادته تعقيداً وجفافاً .

ازاء هذا الاكثار في المصنفات التي تشرح تعاليمه وتلخصها تقصير مقصود او غير مقصود في ترجمة حياته ، وذكر اشهر الحوادث التي اثرت في تكوين شخصيته ، وجعلت منه الصوفي الشهير الذي نعرفه الان . فشكاد نقرأ له سفرآ ضخماً دون ان نقف من شيء يتعلق بترجمته ، ونطالع مؤلفات الذين عنوا به عنابة خاصة دون ان نستفيد شيئاً جديداً غير الذي يعرفه كل الناس .

ولد ابو بكر محمد بن علي محبي الدين الحاتمي الطائي الاندلسي المشهور بابن عربی وبالشيخ الاکبر في ١٧ من رمضان سنة ٥٦٠ هـ (٢٨ توز ١١٦٥ م)

(١) ويعرف ايضاً ابن العربي

في مدينة مرسية « Murcie » فامضى فيها ثمانية اعوام حتى تعلم خلال ذلك شيئاً من القراءة والقواعد اللغوية . ثم انتقل سنة ٥٦٨ هـ (٣ - ١١٢٢) الى مدينة اشبيليه « Seville » حيث عكف على دراسة جميع العلوم المعروفة في عصره ، منتقلًا من تفہم القرآن والتفقہ به الى علم الكلام ، الى المذاهب الفلسفية ، الى التصوف . وقد اقطعت هذه المدينة قسماً كبيراً من عمره فامضى في ربوتها مدة تزيد على عشرين عاماً . ولا شك في ان هذا العهد هو عهد النضج والاختيار ، عهد التفتیش والتنقيب عن المثل العليا الدينية والعلمية والفلسفية .

انصل في هذا العهد باشهر رجال الاندلس كابي بكر بن خلف وابن بشكوال وجمع في صدره جميع العلوم المعروفة في عصره . وقد مساعدته على ذلك ذكاء فطري ، وفهم دقيق . وذاكراة امينة ، وخيال شاعر ، وذوق طريف ، وحنين الى المعرفة . وتعرف في اشبيلية الى التصوف فانضم الى حلقاته ، ولبس الخرقة ، وخدم الشیوخ ، وحفظ تعاليمهم وتفقہ بها . وقد شعر في عام ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بحنين الى الرحيل ، الى السعي وراء الشیوخ البعيدين الذين يحملون المعرفة والحقيقة والابتسامة والنصيحة ، فأخذ في الانتقال من مدينة الى مدينة ، ومن الاندلس الى المغرب ، فزار اكثر حواضرها وتعرف الى الجماعات العديدة ، ووقف على ما تمتاز به كل واحدة منها . فاذا به في تونس ، اذا به في غرناطة ، اذا بهذا الحین الملحق يتتطور في نفسه سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) ويجد ما في المغرب والأندلس من آفاق واسعة قصاً ضيقاً للمتصوف الشاعر ، فينشد بلاداً اخرى ، ووجوهاً غريبة بعد ان الف وجه شیوخه . وكان الشرق في ذلك الحین محجة كل متعلم متثقف بنشد العلم الزاخر والمعلمین النابهین ويتسوق الى بلاد مقدسة

تعقب بذكريات الانبياء وال الأولياء وال علماء . فودع الاهل والاصحاب ، وشد الرحال لزيارة الشرق ، وبيقف على روائته ويتثقف بعلومنه ويحج الى مكة المكرمة . فإذا بالشرق يخليب لبـه ، ويكتب له سحره ، فلا يفارقه طوال عمره . رحل الى مصر ودمشق ومكة فاستعاد في ربوتها ما درسه عن حياة الرسول والصحابة والتبعين وتابعي التابعين ، وراجع ما درسه عن الوحي الديني والالهام الاشرافي والصدور الاسكندرى والفناء الافلاطونى ، واذاب كل ذلك في شيء ، كثير من العاطفة الغرامية والخيال الشعري ، وكون من هذه الاجزاء المتعددة المتنافرة مزيجاً جديداً لم يتوصل الى مثله اخوان الصفاء في جمعهم : توفيقهم . فكان عام ١٢٠١ م عهداً جديداً في حياة ابن عربي ونطاقه الفكري ومذهبة الفلسفى الصوفى . ولكن هذا المزج الذى ظهر فيما بعد في بعض نصوصه المتوحشة المكية ، والرسائل الصغيرة لم يبق على حالي الاول ، وإنما كان يضطرب بعض الاضطراب تحت تأثير العامة والخاصة والايام الدينية . لذلك نراه يحن الى البقاء في الربع المقدسة ، وبمخالف ذلك ، فيغادرها اليوم ويعود اليها غداً ، يتغزل بها ويهرب منها ، يعانقها ويهجرها ، يداعبها ويعقصها . فان هذا العهد المكي هو عهد الحيرة والاضطراب ، عهد الكفر الذي لا شك فيه والايام المليئين الصادق عهد الزندقة والتسليم ، فهو تارة يستلم الحجر الاسود في مكة ، وتارة يجلس في حلقات المتجادلين في بغداد . يحمل من الاولى النفعة الایمانية ، وبقبس من الثانية النزعه الکفرية . امضى في سنة ١٢٠١ هـ ٦٠١ يوماً في بغداد . ثم زارها سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) وامضى فيها مدة طوبلة . ثم عاد الى مكة ومكث فيها بضعة اشهر ، ثم كر راجعاً الى البلاد الشامية فزار حلب ، وانقل الى الموصل وآسيا الصغرى .

واخيراً جاء دمشق فاقام فيها ومات هناك في ربيع الثاني سنة ٦٣٨هـ (تشرين ١٢٤٠م) فدفن عند سفح جبل قاسيون ، حيث دفن فيما بعد ولدها وكانت وفاته في منزل حبي الدين بن الزكي القاضي المشهور ، وقبره معروف في دمشق يقام عليه جامع يعرف باسمه .

وقد كان هذا المتصوف الشاعر المتنبي بجلال الله ، وعظمته وصفاته كثير الشموخ والغزور . وكان يعتقد بأنه من المقربين إلى الحق الذين ينالون نعمه الخاصة ، ويستمدون برضاه وقربه ومعرفته . فإذا بدأ يوانه يزخر باقوال يدح بها نفسه ، ويطرد بها اطراه كثيراً ، ويسبغ عليها الصفات الحسنة . ويكاد يجعل من نفسه انساناً فوق طينة البشر وفوق المائل العالية فهو يقول :

الله يعلم والدلائل تشهد اني امام العالمين محمد
لكن لنا وقت نراقب كونه فإذا أتني فالسلك فيه مهند
ولا نعلم اذا كان ابن عربي قطب زمانه ، ولكننا نجد له شعراً يقول
فيه انه وحيد عصره ، وان الروح الامين العلوي الذي يظهر في المتصوفين
الاقطاب قد ظهر فيه . فهو يقول :

انا العربي الحاني محمد
واني ذاك الشخص في العصر واحد
حرام على الا دور شخصان يوجد
نذر بها السبع الشداد وتخدم
الله الشما وهو النصير المؤبد
مؤيدنا فيه على كل حالة

وما ذاك عن حق ولكن عناء
أتنى وحسادي تروم ونجهد^(١)
ويقول في التذمّر من حساده المشبعين عليه الدين ينسبون اليه الكفر
والزندقة :

خصصت بعلم لم يخص بثله
سواء من الرحمن والعرش والكرمي
واشهدت من علم الغيوب عجائبها
تصان عن انتذكار في عالم الحسن
فيما عجباً اني اروح واغتدي
غريباً وحيداً في الوجود بلا جنس
لقد انكر الاقوام قولي وشنعوا
عليَّ بعلم لا الوم به تفسي
فلا هم مع الاحباء في نور ما أرى
ولا هم مع الاحباء في ظلمة الرمس
علوم لنا في عالم الـكون قد سرت
من المغارب الاقصى الى مطلع الشمس

نَحْلَى بِهَا مِنْ كَانَ عَقْلًا مُبَرِّدًا
عَنِ الْفَكْرِ وَأَنْتَخْمِنَ وَالوَهْمَ وَالْمَحْسَ (١)

وَلَا بدَ مِنْ ذِكْرٍ يَبْيَنُ هَمَا فِي غَايَةِ الْغَرْوَرِ :
الْأَوْلَ :

فَلَمَّا يَوْمَيْ لَوْحِي فِي الْوِجْدَنِ يَدْهُ فَلَمَّا الْإِلَهُ لَوْحَهُ الْمَفْوَظُ (٢)
الثَّانِي :

أَنِي يَبْيَسَةُ دَهْرِيِّي مَا لَمَّا شَبَهَ
مِنَ الْفَرَائِدِ فِي نَحْرٍ وَلَا نَجْرٍ (٣)

مُؤْلِفَاتِهِ :

نَقْدَمَ أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الْمُتَصَوِّفِينَ اِنْتَاجًا . فَنَقْدَ صِرْفِ مَعْظَمِ حِيَاتِهِ فِي الوضِعِ
وَالْجُمْعِ مَاحْتَى بِلْفَتِ مُؤْلِفَاتِهِ حَسْبَ اِحْصَاءِ بِرْ كَلْمَنْ مَائِنِيِّ كِتَابٌ ، يَبْحَثُ بَعْضُهَا
فِي الْفَرَوْضِ الْدِينِيَّةِ السُّنْنِيَّةِ كَلْصَلَةِ الْصُومِ وَالْوَزْكَةِ وَالْحِجَّةِ وَاسْمَاءِ اللَّهِ الْمُسْنَى
وَصَفَاتِهِ كَلْمَدْخُلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِسْمَاءِ ، وَكِتَابُ الْحَقِّ ، وَالْمَنْتَعُ فِي اِبْضَاحِ السَّهْلِ
الْمُمْتَنَعِ . وَيَبْنِي الْقَسْمُ الْآخَرُ بِالْمُتَصَوِّفِ دَارِسَارِهِ الْفَلَسْفِيَّةِ وَالْجَفَرِ وَامْسَارِ الْحَرْوَفِ
كَالْفَتْوَحَاتِ الْمُكَبِّيَّةِ وَالاعْلَامِ بِاِشْارَاتِ أَهْلِ الْإِلَهَامِ وَالْتَّدْبِيرَاتِ الْإِلهَيَّةِ وَسَوَاهَا .
وَالْقَسْمُ الْآخِرُ يَجْمِعُ النَّاْحِيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ وَبِضمِّ الْيَهَا نَاحِيَةً جَدِيدَةً تَنْفَرِدُ

(١) الدِّيْوَانُ الْأَكْبَرُ ص ٤٨

(٢) - - ص ٤٦

(٣) - - ص ٨٠

بها ابن عربي وابن الفارض والخلاج ، وهي الناحية الشعرية . ولكن شعر ابن عربي لا يكفي باظهار نفسية شاعر متصرف يحب الله ويسرف في توجعه ونشوقة . بل يظهر لنا نفساً تذوب رقة وحنوا وشاعرية . ويجعلنا نشك بأنه قبل في العزة الالمية والصفات الصمدية ، لأننا نتلمس فيه شيئاً يشبه الغرام الارضي ولو عته واحزانه واشواقه .

فهل كانت ابن عربي صادقاً في نسبة قصائده الى الله وشرحها مشرحاً صوفياً ؟ هل عرف الحب الارضي الذي يوحى الشعر ويفجره تفجيراً ؟؟ لم تؤثر العفة عنه . ولم يكن من المتصوفين الذين يؤثرون الابتعاد عن المرأة ، ليسكنوا الى ربهم لا يشاركون به احداً . كان يقول بالزهد في سبيل الحياة الثانية ، وبعلم بالابتعاد عن المرأة في سبيل الله ، ولكن لم يو بدا من ان يمضي عهد الارادة الاول في اشبيلية بصحبة فتاة حسناء . مع ان ابن عربي وسواء من زعماء التصوف يحرمون على المربيدين معاشرة النساء ، والزاج في هذا العهد العصيب . وقد اخذ خصومه عليه هذا الاختطاف في الاقوال والافعال . واعتمدوا على هذه الحادثة وسواءاً من الآراء المتطرفة يذكروا عليه اي انه المسلم الصادق . ولاظهروا للملأ انه كفر ملحد .

فهل نقدر ان نؤمن بأنه كانت بتقني في جميع قصائده بالعزة الالمية ؟ وهل نقدر ان نعتمد على عهد الارادة لثبت انه لم يكن صادقاً في شعره الصوفي ؟ لقد يكون عهد المريدة الحسانه عهد ضعف وخور . كما يحدث جحيم الاحداث الذين يريدون ان ينضموا الى حلقات المتشففين ولا يزال حب الدنيا عالقاً بقلوبهم يدفعهم الى التئم بذاته . وامثال هذه الحادثة كثير في ترجمات مشاهير المتصوفين .

ولكن حادثة اخرى جرت له تلقى شيئاً من النور على حب ابن عربي

الارضي . وتجعلنا نؤمن بان قسماً كبيراً من شعره نظم للتغزل بالنساء . كان في عام ١٢٠٩هـ (١٩٩٨م) في مكة وكان في الثامنة والثلاثين من عمره . وقد اجتاز عهد الحيرة والاضطراب ، واصبح من الشيوخ الذين يدبرون امور الاحداث ، ويرسمون لهم السبل الحقة . ويعينونهم على تحمل هواجس النفس ومشروها ، فاذا به يتعرف في تلك الرحلة الى فتاة في الرابعة عشرة من عمرها قد دعى نظام الفارسية وتكلى بعين الشمس . وكانت نظام هذه آية في الجمال والذكاء والنباهة ، تحفظ الشعر والعلم ، وتعرف اسرار التصوف واخبار المتصوفين . فاستولت على لب الشيخ واصبحت له عروسًا شعرية تستنفذ جميع خياله ووجهه فا كثُر ابن عربي في ذلك العهد من نظم القصائد الرقيقة التي تستشف منها ألم الحب ولوحة الشوق . وقد اسمعنا شيئاً كثيراً من الشعر قاله في فتاة البسها الخرقة في مكة المكرمة ، ودعاهما تارة بصفية وطوراً بفاطمة :

لبست صفة خرقة الفقراء لما تحلت حلية الامانة
وانت بكل فضيلة وتنزهت عن ضدها فلت على النظرة
ونكالمت اخلاقها ونقدست وتخلفت بجوابع الاسماء
نزلت نبشر هاملاً نكرة السما ليلاً بنيل وراثة الذباء (١)
لم يكتف باظهار اخلاقها الحسنة وفضائلها السامية ، وانما يتطرق الى
وصف احد موافقها معه ، جرى في الحلم ، والحلم صدى الرغبة الحقيقية الكامنة
في النفس :
البست جارية ثوبأً من الخفر في النوم ما بين باب البيت والمحجر

وقبله فقبلنا مقبلها
 وغبت فيه عن الاحساس بالبشر ...
 واستصرخت في ثنيات الطواف وقد
 حسرن عن اوجه من احسن الصور
 هذا امام نبيل بين اظهرنا
 هذا قتيل الموء واللثم والنظر
 قالت لها قبليه الام ثانية
 عساه يحبني كمثل النفح في الصور ..
 فعاذت فازاحت حكم غاشيتي
 وادبرت وانا منها على الاثر
 أقبل الارض اجلالا لوطأتها
 جما له وانا منه على حذر
 من اجل تقييده بصورة امرأة
 عند التعلي قلت التقص من بصري
 ونسوة كنجوم من مطالعها
 وانت منهن عين الشمس والقمر

يا حسنها غادة كالشمس طالعة

نسي العقول بذلك الغنج والخور (١)

فهو يحاول المزاج بين حب النساء وحب ربه ، ويتوصل الى ذلك بتطبيق نظريته الصوفية القائلة بالحلول . فإذا بـ ^{الله} عظمته وجلاله وصفات كماله يتجلى في شكل امرأة جميلة يتمنى لها ابن عربي . يتنفس بها ويقول :

... من اجل تقييده بصورة امرأة

عند اتجلي فقلت النقص من بصر ي

ويقول :

اذا تعجلت لي في اتشي اهيم بها

ولو تعجلت لي في اقبع الصور ... (٢)

ويأتي في احدى رسائله على وصف العزة الالمية والربيع المقدسة .
فيكثر من التعبير الغرامية حتى يمحار القاريء في متبع وحبيه . فهو يقول :
« ... واستسلام واستسلام . ومصريق . وتعنيق » ويقول في الوصف :
« رخيصة الدلال . معشوقة الادلال . رائمة الجمال . فائقة الجلال . غضة
ناضرة . نكحة نادرة . وضاحة الجبين . معتدلة العينين . حسنة القدر .
اسيلة الخلد . روضة مطلولة . نجلاء العينين . مائسة العطفين . مربضة الاجفان .
عنبرية المشر . عذبة الكلام !! » (٣)

(١) ص ٥٦

(٢) ص ٢٤٠

(٣) تاج الرسائل ص ٥٥٥

كل ذلك يؤكد لنا انه لم يقف غزله على الله . وإنما اشرك به المرأة
التي يتجلى فيها . وهذا التأويل الذي يعمد اليه الشاعر المتصرف ضعيف لا
يقبله السنّيون واصحاب التصوف المحافظ .

ولكن ما قيمة قصائده من الناحية الشعرية؟ لم ينشر ديوانه بيز ايدبي
الجبل الحاضر لأن طبعته الجريتين صعبتا المطال . ولأنه لم يرزق من يشرحه
شرح لغويًا وصوفيًا كما رزق معاصره ابن الفارض . مع انه لا يقل عنه
شاعرية . وان قصر عنه في العاطفة الصوفية . فقد فاق معظم شعراء العربية
في اختيار المواضيع الجديدة التي لم تختصر على بال ساقيه ولا حقيبه . واجاد في
الصور الشعرية المتراكمة الاجزاء والافسام . فكأنها لوح رسام ماهر . يعطي
كل ناحية حظها من الخطوط والالوان . وطرق اصعب المرافق الصوفية
بشعر رقيق جذاب . فهو يقول في رحلة الى الحق :

لما بدا السر في فوادي فني وجودي وغاب نجمي
وحال قلبي بسر ربي وغبت عن رسم حس جسي
وجئت منه به الي في مركب من سني عزمي
نشرت فيه قلاع فكري في لجة من خفي علمي
هبت عليه رياح شوقي فمر في البحر مر سهم
فجزت بحر الدنو حتى ابصرت جهرًا من لا اسمي (١)
ولو لم يعمد ابن عربي الى اخراج اللناظم الواحد على معانٍ عديدة ، والى

الا كثار من التعبير الصوفية لكان له شأن في الشعر غير الشأن الذي له الان . ولكتنا لا نجد في قصائده ما يتوّكـد رأـي المـنشـرـق « كـراـدـه فـو » القائل ان شاعريـته هي شـاعـريـة فـارـسـيـة اـكـثـر مـنـها عـربـيـة ، لما فيـها من رـقة وـعـاطـفـة مـحـزـونـة ، تـظـهـرـ تـارـة وـتـلـاشـي تـارـة أـخـرى (١) .

هل خالـف ابن عـربـي تـقـيـةـ لـيدـ الفـكـرـ العـربـيـ ؟

دعـى من التـعـالـيمـ الصـوـفـيـةـ ما لمـ يـعـهـ أـحـدـ سـوـاهـ . وـوقـفـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ المـذاـهـبـ فـابـدـعـ فـيـ بـعـضـ نـظـرـيـاتـ كـقولـهـ بـالـخـلـولـ وـوـحدـةـ الـوـجـودـ ، وـاتـبـعـ فـيـ الـبـعـضـ الـأـخـرـ كـقولـهـ فـيـ تـسـلـسلـ الـمـوـجـودـاتـ ، وـحدـوـثـ الـعـالـمـ ، وـالـجـبـرـيـةـ ، وـالـنـفـسـ وـقـواـهـاـ وـفـضـائـلـهـاـ وـرـذـائـلـهـاـ .

ما هي وحدة الوجود؟

ورـدـتـ هـذـهـ الـعـبـارـةـ عـنـ كـثـيـرـينـ مـنـ مـؤـرـخـيـ التـصـوـفـ الـعـربـيـ وـالـفـارـسـيـ ، فـاخـتـلـفـواـ فـيـ شـرـحـهاـ وـاصـبـحـتـ الشـرـوـحـ أـصـبـحـ فـيـهـاـ مـنـ النـظـرـيـةـ نـفـسـهـاـ . وـذـلـكـ لـانـ الـبـوـضـوـعـ يـتـشـعـبـ إـلـىـ مـوـاضـيـعـ عـدـيـدةـ ، وـنـظـرـيـاتـ غـرـبـيـةـ ، وـيـقـومـ عـلـىـ تـعـالـيمـ لـاـ يـقـرـرـهـ الـدـيـنـ وـلـاـ تـعـرـفـ بـهـاـ السـنـةـ . فـكـانـ صـمـوـبـةـ الـمـوـضـوـعـ وـخـوـفـ الـقـفـةـ سـبـبـاـ لـذـلـكـ الـلـتـوـاءـ الـمـقـصـودـ اوـغـيرـ الـمـقـصـودـ .

جمـعـتـ نـظـرـيـةـ وـحدـةـ الـوـجـودـ رـأـيـ اـفـلاـطـونـ فـيـ الـمـثـالـاتـ الـمـقـوـلـةـ ، وـرأـيـ الـاسـكـنـدـرـيـنـ وـالـاـشـرـاقـيـنـ فـيـ الـاـنـثـاقـ ، فـانـ جـزـئـيـاتـ الـعـالـمـ الـمـتـعـدـدـةـ الـيـ

ندر كها يجواستنا وما بعدهن حواسنا من الالات الكهربائية والميكانيكية والبصرية ، ليست مستقلة في ذاتها ، ولا تكون افراداً منقطعة تمام الانقطاع عن الاجزاء الاخرى . واما يشترك عدد ممبن منها بخاصة اساسية تميزه وتجمعيه وتجعل منه نوعاً . فالموجودات اذا تولفت جماعات عديدة ، بين افراد كل فئة منها صلات جامعة .

وهذه الجماعات نفسها تنقسم الى انواع أخرى ، تدل على عدد اكبر من الافراد ، وتشتتى على صلات اقل من الاولى . وهكذا دوالياك الى ان نتوصل الى الاجناس التي تجمع اكبر عدد ممكن من الانواع السامية . واذا أتبعدنا هذه الطريقة «الاحتزالية» نتوصل الى كثيرون واحد ينشعب في كل الموجودات الحسية وغير الحسية . وهذا الكثيرون الفرد ، او الجوهر ، هو بالقوة ككل كثيرون آخر مركب .

ثم ذاعكسنا هذه الممارسة ، وزدنا على الكائن السامي بعض صفات عرضية ، نتوصل ايضاً الى ادراك اصلة الاختلاف في عالم الشهادة . فالجوهر جنس سام ، تزداد عليه الابعاد لتمييزه عن حالته الاولى ، وتنجمله في الرتبة الجسمية . ثم تنضم اليه صفة النسو ، فتنزله الى المرتبة النباتية . ثم ينضم اليه الحس والحركة فينتقل الى المرتبة الحيوانية . ثم يظهر النطق فيحصل للنوع الانساني . ثم تتشعب هذه الانواع بعد اضافات جديدة وتعيينات مستحدثة ، فتتألف الافراد والاجزاء .

فان الموحد المطلق . او الكائن السامي او الجوهر هو قائم بذاته . وهو ذات الذات في جميع الكائنات . وكل الماهيات الاخرى ليست سوى صفات . لا وجود لها في انفها . بل هي في الحقيقة اعتبارات زائدة لا تقوم بذاتها . ولا تظهر الا عندما تصبح صفات لهذا الجوهر . فالانسان ذات له

الحياة والنطق . والحيوان ذات له الحياة . والجسم ذات يقبل الابعاد الثلاثة . والجهر ذات يقوم بالذات . كل هذه معان وصفات طارئة على ذات بقوم بذاته . ولكن كل واحد من هذه الماهيات ينحصر الوجود ويعينه وينزله الى مرتبة من مراتب الخصوص . فليس الموجود من الحقيقة في جيم مراتب الموجودات مع تكثيرها وتعددتها وتشعبها الا الوجود المطلق . وكل ما سواه زائد ودخول .

ويرى بعض فلاسفة التصوف الذين طرقوا هذه النقطة من المذهب الصوفي الفلسفـي . ان امثال هذا القول ليست حبة على ان المتصوفين يعتقدون بالمذهب الحلوـي . حلول الله في كل الكائنات . او انهم يذهبون مذهب الانانية . لانه ليس هناك اتحاد بين الوجود المطلق وهو وجود آخر حسب كميات متعددة متفرقة لا يجـاد كل ما في الكـون من موجودات . وقد ذهب محمد بن حسين بن عبد الصمد العـامـي البـعلـبـكي (٩٥٣ - ١٠٣١ هـ) هذا المذهب واثبت في بحثه عن الوحدة الوجودية ان المتصوفين لا يشارـكون بعض متطرفي الفلاسفة الذين يقولون بوجود كـائـنـينـ كـانـاـ سـيـاـ لـكـلـ وـجـودـ او الذين يقولون بـانـ اللهـ يـحـلـ فـيـ كـلـ كـائـنـ .

وأظـنـ ان قول العـامـي البـعلـبـكي الصوفي لا يختلف ما ذهب اليه سواه من المتصوفين الآخرين . ولا يشـذـ عن الطريقة اللاهوـتـية الفلسفـية التي انتـهـاـ الفـارـابـيـ فيـ المـدـنـةـ الفـاضـلـةـ ،ـ ثـ قـرـدـهـ اـبـنـ سـيـاـ كـانـاـ سـيـاـ لـكـلـ وـجـودـ وـصـدـرـ الـكـائـنـاتـ كـلـهاـ عـنـ وـاجـبـ الـوـجـودـ .

فـالـلهـ قـدـيمـ اـزـليـ .ـ يـتـصـفـ بـكـلـ الصـفـاتـ الـحـسـنةـ الـفـيـ يـدـ رـكـبـ الـبـشـرـ وـالـقـيـ لاـ يـدـ رـكـبـ الـكـائـنـاتـ .ـ وـمـنـ صـفـاتـ كـلـهـ اـيـجادـ الـعـالـمـ عـلـىـ حـالـتـهـ الـخـاصـرـةـ .ـ وـلـكـنـ كـيـفـ يـتـوـصلـ هـذـاـ الـكـائـنـ الـوـاجـبـ الـوـجـودـ الـوـاحـدـ الـبـسيـطـ فـيـ ذـاتـهـ وـجـوهـهـ

إلى ايجاد جميع العالم بظاهره المتعددة واجزائه البدائية امام انتظار الناس
وامتناعه عن الابصار والعقول؟ وكيف تقدر علة واحدة بسيطة على ايجاد
معلولات متعددة وقد اثبتت التجربة الحسية ان السبب الواحد البسيط لا
يصدر الامرين واحداً؟

عليها ان نذكر كلمة عن مذهب الصدور عند الاشراقيين ، لات
المتصوفين العرب ، وخصوصاً ابن عربى ، يشار كونهم في هذه النظرية وان
اختلف اهل الواحد والاذواق عن اهل الاشراق في صفات العقول الصادرة
عن الواجب الوجود .

تقدمنا ان الواحد ، او الله ، او الحق ، او الواجب الوجود ، يوجد
مخلوقاً سواه ، لان ذلك من صفات كماله دون ان يخسر شيئاً من ذاته . وقد
دعا الاشراقيون هذا الكائن العقل الاول وجعلوا له دوراً خاصاً يليمه في
ادارة شؤون الكائنات . وهو واجب الوجود بعلته ومحكم الوجود بذاته ،
فإذا تأمل بالواحد اوجده عقلاً ثانياً ، وإذا تأمل في ذاته اوجده فلماً من كيماً
من روح وجسم يسبح في الفضاء . ثم يفعل المقل الثاني ما فعله الاول ، الى
ان تبلغ الموجودات العقلية او المقول المفارقة او الملائكة كما يدعوه رجال
الدين ، احد عشر مخلوقاً . ثم تنتقل السلسلة الوجودية الى العالم الذي تحت
ذلك القمر ، وهناك تبدأ الاجناس والانواع المعدنية والنباتية والحيوانية
والانسانية في الظهور ، وتنشعب الى ان تصبح اجزاء وافرadaً .

فليست نظرية وحدة الوجود التي اعتنقها المتصوفون خارجة عن نطاق
الفلسفة الاشراقية ، وإنما هي مذهب الصدور الاسكندرى الذي تقدم
الكلام عنه . وقد ايد المتصوفون قولهم بان الله هو الذي يظهر في كل كائن
بأنه يتجلى لموسى بصورة نار ، وكذلك بقول النبي : «رأيت ربى على صورة

شاب امرد ۷ فوضع كنه بين كنفي ۷ فوجدت بوده بين ثديي (١) . فإذا جاز تقبيله في صورة شخصية . فما المانع من ان تكون سائر الصور الارضية والسموية صور تعبليات وظهور ذاته » (٢) . وقد رأينا امثل هذا القول في شعر ابن عربى عند ما ينتهى بجمال النساء ويزعم ان الله قد حل فيهن ، كما حل في كل اثر من انوار الكائنات . وعند ما توقف على مرمى وحدة الوجود لدرك معنى القصائد التي نظمها المتصوفون في الواضيم الصوفية .

....

يعتقد الاشرافيون ومنهم الكندي والفارابي وابن سينا ان العالم قديم ازلي ، ويستدلون على ذلك ببراهين لا محل لذكرها . منها برهان اى به ابن سينا عندما يثبت ان امكان الوجود صنة تنسب الى موجود هو المادة ، وبهان امكان الوجود اعتبار عذلي يسلم به الفكر دون جدال وجدت له مادة قديمة يتحقق بها ، وهذه المادة هي المعنصر الاول الذي تطور وانتقل في ادوار عديدة حتى اصبح في صور الموجودات المتعددة التي تؤلف عالم الشهادة . ولكن المتكلمين يختلفون ابن سينا في هذا الرأي وقد شاركهم ابن عربى في هذه الخلافة ، وقال مع القائلين بان العدم والوجود ليسا صفتين

(١) هذا الحديث موضوع لا اصل له . قال ابن الريبع في كتابه : تميز الطيب من الحبيب ص ٧٩ هو امر دائر على السنة عوام المتصوفة وهو موضوع مفترى على رسول الله (ص) كما قاله النساج السبكي وغيره اه و قد فسره من رواه بان المراد به رؤيا النائم لا دوبيه اليقظة والدين . وعلى كل فالحديث لا اصل له (الشیخ مصطفی الغلابی)

(٢) العاملي البعلبکي وحدة الوجود ص ٣٠٨

بنضافان الى شيء آخر . وانما هما الشيء نفسه (١) وهذا ما نراه عند الغزالي في كتاب تهافت الفلسفه ، وهذا ايضاً ما لم يقر به فيلسوف الاندلس ابن رشد . ولكن ابن عربي يزيد على اقوال المتكلمين فكررة جديدة ويحاول التوفيق بين الفريقين ، فيقول ان الكون قديم محدث ، موجود معدوم ، قديم لانه موجود في العلم القديم ، متصور فيه ازلا ، وهي بعض مراتب الوجود . محدث لأن شكله وعينه لم يكونا ثم كنا . فستتتجزء من كل ذلك ان زيداً موجود في العلم ، معدوم في العين ازلا . ونخن اذا انعمنا النظر في هذا التوفيق نرى ان ابن عربي يتجاوز اتباع رأي أبي حامد في القول بان الله اوجد العالم بارادة قديمة ، ردآ على القائلين بان حدوث العالم يدل على استحداث ارادة جديدة في الواحد . وقد اظهر ابن رشد خطأ هذا البرهان في كتاب تهافت التهافت عندما يفرق بين ارادة الفعل و فعل الفعل . لانتا تقدر ان نفصل المشيئة عن المطلول ، ولكنكنا لا تقدر ان توجد السبب ثم توقف فعله فترى من الزمن لاحاداث المسبب .

.....

يعمد ابن عربي عندما يتكلم عن حدوث العالم او قدمه وعن اول الوجودات الى طريقة تجمع بين الانفاظ الوضعية التي اتفق عليها اتفلسفون وعلماء الكلام وبين التعبير والصور الشعرية التي امتاز بها عن سواه .

يعتقد ان اول موجود صدر عن الواحد حسب الطريقة الاشرافية هو جوهر بسيط روحاني فرد ، بدعوه الباطنيون « بالامام البزن » وتدعوه السنة

(١) ابن عربي : انشاء الدوائر ص ٦ - ٧

H , S. Nyberg « Leiden 1919 »

Kleinere Schriften Des Ibn Al Arabi

« بالمرش » ويدعوه الاشرافيون « ببرأة الحق او بالعقل الاول » . وقد كان هذا الجوهر سبيلاً لابجاد كل ما في العالم من كائنات . وهنا تستيقظ النفس الشاعرة في صدر انتصوف ، فيجعل من هذا الجوهر انساناً وليس كناس ، يوتفه امام ربه ليستمع الى اقواله وليصفي لسلافه : « انت المرأة وبك نظر الى الموجودات ، وفيك ظهرت الاسماء والصفات . انت الدليل على . وجهتك خليفة في عالمك تظفر فيهم بما اعطيتك ، وتقدم بانواري وتفديهم باسماري . وانت المطالب بجميع ما يطرأ في الملك »

واداً بهذا الرسول او الملك بسكن مدينة مزخرفة العبارات ، منوعة الحدائق ، واسعة الطرقات . واسكن فيها رعيته وحاشيته وارباب دولته وسماتها حضرة الجسم والبدن . وقد قامت على اربعة امدة وهي الاسطقات والناصر . واقام الخليفة في موضع دعي بالقلب ، ثم نهى الله له منتزهاً عجيبة عالياً في ارفع مكان في هذه المدينة ، سماه الدماغ ، وفتح له فيه طاقات ونواخذ ، ويشرف منها على ملكه . ثم بني له في مقدم ذلك المنتزه خزانة مسماها خزانة الخيال ، وجعلها مستقر جباراته . وانام في وسط المنتزه خزانة الفكر الذي ترتفع اليه المتخيلات فيقبل منها الصبح ويرد الفاقد . وبنى له في آخر هذا المنتزه خزانة الحفظ . وجعل هذا الدماغ مسكن الوزير . ولكن الخلق لم يتم في ذلك ، ولم تكتمل على الجوهر مسرته ، وانما ظلل في حاجة الى ما تحتاج اليه جسم الكائنات الحية : الى زوجة . فاوجد الله النفس وجعلها له حرة ، فاصبح الزوج زوج النفس

وهنا تظهر النظرية الافلاطونية التي قبسها المتصوفون عنهم ، واذا يخوضون النفس يستتبع ثورتها ، وسبتها حسانتها . لكل منها غاية وهو سوابح احلام ومثل علينا . ولم يبق الامر على حالي هذه ، وانما ارجد الله في هذه الملائكة

اميراً قوياً كثيراً الرجل والخلول سماه الموي . بناء على الخليفة سلطته ، ويكيد له ليتمكن بها سخر له من عيش هني وامر نافذ ، واجد له وزيرأً سماه الشهوة ، فبرز يوماً في اجناده وحرسه بتنته في بعض بساتينه ، فاشعرت النفس من خدرها عليه فرآها ورأته ، ونظر كل الى صاحبه . فابتسمت له وابتسم لها ، وتشوق اليها وحنت اليه ، واذا بالحب يجمع بين قلبيهما ، بين النفس زوج الخليفة والموي الامير الجليل . فاعمل الموي الخليفة في الاجتماع بهما . فما زال يهاديه باحسن ما عنده حتى لم تعد تطبق الصبر عنه ، وال الخليفة غافل عن هذا . والعقل الذي يدرك ذلك كان يخفي عنه الامر ، وهو يظن ان النفس لا بد عائنة عن غيها .

وكان الناس حائرة في امرها ، لا تدرى اي طريق تتبع ، والى اي قلب تميل ، فهي تتردد بين قوبين ، هذا بناديمها وذاك يناديها . فاذا اطاعت الموي كان العغير وكن لها اسم : « امارة بالسوء » . وان اجابت العقل كان التطهير ، وصح لها اسم « المطمئنة » .

نادى الروح النفس في احد الايام فلم يسمع جواباً . واذا كل من في القصر داجم مطرق كأنهم في انتظار عاصفة . ولكن الوزير ابرى بحدث قوله بما كان ، ويروي له خبر النفس الامارة بالسوء الماربة من منزلها الزوجي ، المندفعه وراء الموي . فغضب الخليفة وارسل وزيره اليها يحمل لها الامر بالعودة ، مهدداً بصیر مظلم اذا لم تذعن له . واذا بالموي الامير الشجاع ينزل في ساحة قصره يهدده بالموت ، وبوعده بخزاب ملكه ، وتشتيت شمله ، وقتل رجاله واعوانه . فعاد الى ربه راجياً ، والقى بامره بين يديه ضارعاً ، حتى اعانه على امره ، واصلح من شأنه ، واعاد الماربة الى طاعته ودحر الموي ووزيره وجندوه .

فابن عربي في هذه النظرية يزج بين مذهب الاشتراطيين في المقول المفارقة وبين مذهب العلماء الطبيعيين منهم في اتحاد العناصر وتمازجها لظهور المادة . وقد تعود العرب تيشيل العالم الكبير بالانسان ، والانسان بعالم كبير ، واستخراج الحكم من ذلك . فملائكة الخليفة هي العالم باسمه ، وروحه هي مثال الارواح ، ونفسه مثال النفوس . وقد احدث هذا العالم حسب نظريته لاجل الخليفة ، وهو في جميع اعماله مسير بقوه علوية ، هي قوه اخلاق . « فعلم الملائكة هو الحرك لعلم الشهادة وهو تحت قهره وتسخيره فلا تصدر عن عالم الشهادة حرکة ولا سكون ولا اكل ولا شرب ولا كلام ولا صمت الا عن عالم الغيب . كل ما في الكون من خير وشر اوجده الله لحكمة لا يدر كها سواه . » (١)

وتتلخص نظرية ابن عربي في الجبرية والقدرة برأي النلاسفة المسلمين فلا يسلم بمحرية الارادة والاختيار كما يسلم بذلك علماء الكلام . بل يعتقد ان كل ما في الوجود من افعال هو فعل الله وحده ، كتب ذلك في اللوح فلا مفر منه للعباد . ومخار في التوفيق بين هذا القول وقول آخر يثبت فيه ان الانسان مطบوع على الشر ، وانه يقدر ان يصلح نفسه واخلاقه اذا اراد ذلك وثاب على ترويضها في الحسنات .

الأخلاق :

فالغالب على طبيعته الشر . فاذا استرسل مع طبعة دون اعمال الفكر كان كالبهائم لان الانسان لا يتميز عنها الا بالتفكير . ولو لم تكن طبيعته

شريرة لما احتاج الناس الى الشرائع والسنن والسياسات تقييد الفرد في افعاله ، فتجعله مسؤولاً عما تجني يده . اما العلة التي تحمل الاخلاق مختلفة فهي النفس . وللنفس ثلاث قوى ، وهي ايضاً تسمى نفوساً : النفس الشوهانية والنفس الغضبية ، والنفس الناعقة . وتصدر جميع الاخلاق عن هذه القوى فنها ما يختص بادعاء ، ومنها ما يشترك فيه قوتان ، ومنها ما تشرك فيه القوى الثلاث . ومنها ما يختص به الانسان . ومنها ما يكون للانسان وغيره من الحيوان (١)

وإذا انحنت النظر في هذا التقسيم نرى ان ابن عربي يحاول تقليد الغزالي في تمييز قوى النفس والتفريق بينها . ويحاول ان يعيد جميع عواطف العباد وافعالهم الى هذه الاقسام النفسية . ولا يقتصر على هذا بل يتعداه الى انتباس نظريته الفائلة بالاعتدال والمحائلة والتوازن . وال الاولى من تعاليم ارسطو ، والثانية والثالثة من تعاليم افلاطون ، اخذها الامام ابو حامد الغزالي وبني عليها نظرياته في الاخلاق النظري والعملي . ثم جاء ابن عربي فاحتذاه وتأثر بما تأثر به ومزج بين تعاليم الفياسوفين الاغريقين وتعاليم ابي حامد ونواهي الدين الاسلامي .

شبّه افلاطون النفس بعربة يجرها جودان . الجراد الاول يمثل القوة الشوهانية ، والثاني القوة الغضبية ، اما السائق فانه يمثل القوة العاقلة . فإذا توصلت القوة العاقلة بما لديها من ذكاء ونشاط الى التسلط على القوتين الباقيتين وتسييرهما حسب ارادتها ، فترسلهما عندما تزيد وتكتبع من جامحها عند

الخاطر ٠٠٠ عندئذ تكون الاخلاق حسنة والانسان فاضلا ، والاعمال صالحة ٠ وهذا ما يعتقد ابن عربي ٠

١ - النفس الشهوانية :

في للانسان ولسائر الحيوان ٠ تسبب جميع اللذات والشهوات الجسمانية ٠ وهي قوية جبارة ٠ اذا لم يقهرها الانسان ويهذبها ملكته استولت عليه ٠ واذا فلت ذلك وخرجت عن طاعته عسر تهذيبها ، فيصبح الانسان كالحيوان وبضمير دينه وبكثر غوره ٠

٢ - النفس الغضبية :

يشترك فيها الانسان والحيوان ٠ وبها يكون الغضب والجرأة ، وحبة الغلة ٠ وهي اقوى من النفس الشهوانية واضر بصاحبها ٠ اذا تملكته بظهور فيه الخرق والخذد ٠ وبيدو محباً للغلبة ، متوفياً على من آذاه ، مقدماً على من ناوه ، طالباً للنروس من غير وجهه ٠ فاذا لم يتمكن من الرئاسة من وجهاها توصل اليها بالحيل الخبيثة ٠

اما من سادها وتدير امرها كان رجلا حكينا وقوراً عادلا ٠ وخير الامور الوسط ٠ فاذا كانت متوسطة كان صاحبها متوسط الحال ٠ فان خير الاخلاق بين التفريط والافراط كما يقول الفزالي ٠

٣ - النفس الناطقة :

يتميز بها الانسان عن الحيوان . وبها يستحسن المحسن ويستقبح القبائح ويهذب قوته الباقيتين . ولما فضائل ورذائل :

أ - الفضائل : اكتساب العلوم ، وقهر النفسيين الآخرين ، والمحث على فعل الخير .

ب - الرذائل : الخبر والخدامة ، والميول الشريرة ، وحث الناس عليها . وهذه القوة لجيم الناس ، الا ان منهم من تغلب عليه فضائلها فيستحب منها ويستعملها . ومنهم من تغلب عليه رذائلها فيألفها . اما الحديث فانه يتأثر بيئته فيكسب الاخلاق من يكثر ملابسته ، ومن ابوبه واهله . ويأخذ ابن عربى في ذكر العناصر التي تؤثر في الاخلاق وتكوينها وتطورها ، واستمدوا : الاحداث لاقفبال جheim المؤثرات الخارجية من الاهل والصحب . ثم يقسم الاخلاق الى فضائل فيذكرها ويدرس اشهرها وطرق بلوغها ، والى رذائل فيحددها وبوصي الناس بالابتعاد عنها ، معتقداً في كل ذلك نظريات الامام الغزالى وتقسيمه .

هل كان كافراً ؟

كثير المادحون والمشجعون . وانبرى كل فريق منهم يلصق به من الحسنات ما لم يغرفه ، ومن السينات ما لم يقترفه . كان الحنابلة والشيوخ المخالفون يتفحصون مؤلفاته وبيوبيون كتاباته ويخرجونها كما يرددون ليظهرروا للعامة كفره ، وكان الانصار اهل المواجهة يخرجونها حسب الكتاب ويتحدثنون

بكرامات ابن عربي ونقواه ، حتى اصبح شاغل المسلمين عامة في البلاد العربية والفارسية والتركية ، في الشرق والغرب ، في الحلقات الصوفية والحلقات الفلسفية . وكانت هذه الخصومة سبباً في انتشار كتبه ، وأكباب الناس عليها حق اصبح كل فرد من الافراد حكماً في خصومة المنظرين والمحافظين .

الخصوص :

فالفضة التي تهتمبت عليه وحاولت تحرير كتبه العديدة اخذت عليه بعض نقاط حاولت ان تظهر كذبه فيها : فهو ليس بصادق في عاطفته الصوفية . وقد اعتمد خصومه في اظهار ذلك على ما قدمناه من غرامه الارضي في عهد الارادة وعهد النضج . وكان جربتنا في آرائه فذكر ابياناً تشعرنا بالحلول ونظريه وحدة الوجود . فهو يقول في شجرة الكون : « اني نظرت الى الكون وتكلوبيه » فرأيت الكون كله شجرة ، وأصل نورها من جهة « كان » . قد لفحت « كان » الكونية بلاقح حبة « نحن خلقناكم » . فانعقد من ذلك البز ثمرة « انا كل شيء خلقناه بقدر » . فابول ما انبت هذه الشجرة ثلاثة اغصان ، اخذ غصن ذات اليمين واخذ غصن منها ذات الشمال . ونبت غصن منها معتدل القامة على سبيل الاستقامة ، فكان منه السابقون المقربون . فلما نبت واستعمل جاء من فروعها الاعلى ، وجاء من فروعها الادنى عالم الصورة والمعنى . فما كان من قشورها الظاهرة ، وستورها البارزة فهو عالم الملك . وما كان من قلوبها الباطنة ولباب معاناتها الخافية فهو عالم الملائكة . وما كان من الماء الجارى في شريانات عروقها الذي جعل به نوها وحياتها وسموها فهو عالم الجبروت

الذى هو سر كلمة «كن» ٠ ثم احاط بالشجرة حائط ، حد لها حدوداً ، ورسم لها رسوماً . خحدودها الجهات ، وهي الملو والسفل واليمين والشمال والوراء والامام ٠ واما رسومها وما فيها من الافلاك والاجرام والاملاك والاسحاق والآثار فهى عنزلة ما يستظل به من الاوراق (١) » ٠

وقد رد هذه المعانى في كثير من كتبه ونظمها شرعاً ، فقال في احدى رسائله : « فلا يقى بصر الا عليه ، ولا يخرج خارج الا منه ، ولا ينفعي قاصد الا اليه ٠ فيما اول الاباب اين الفيفية والمحاجب :»

ومن عجب انى احن اليهم
واسأل شوقاً عنهم وهم معي
فتبكّهم عيني وهم في سوادها
ويشكّو النوى قلبي وهم بين اضاعى
اولاً يفوق هذا في التطرف قول الحلاج :
ما زاحت روحك روحي في دنوّي وبعادي
وقوله عندما قتل :

ما قد لي عضو ولا مفصل	الا وفيه لكم ذكر
احرمة الود الذي لم ينزل	يطمع في افساده الدهر
ما حل بي عند نزول البلى	يأس ولا مسني الفسر

الحق يقال ان ابن عربي بلغ في تطرفه ملتفاً بعيداً . فدار على خطى
الحلاج ، ولكنه لم يرزق بامير مت指控 يفتكم به كارزق الشهيد الصوفي . وهو
وان تأثر به ، واتبه في نظره ، فقد عرف كيف يبتدر عن العامة بعض
الاستئثار ، وعرف كيف يتقارب اليهم باحاديث بنقلها عن النبي عند وضعه
الكتب ككتاب «الفتوحات المكية» . وضعه كما يزعم بعد وحي النبي ،
وتكلم فيه عن امور الدين باسهاب لم يسبقه فيه احد من علماء الدين سوى
ابي حامد الغزالى . وابن عربي يخشى العامة ويحذر تلامذته واتباعه منهم
 ليقول : «لراحة عم الخلق فارجع الى الحق ، فهو اولى بك . ان عاشرتهم على
ما انت عليه قتلوك . فالستر الى». وهذا الخوف والتقية دفءاه في مؤلفاته الى
النحو حتى يصعب على الناس فهمه . فقد قال في مقدمة كتاب «شق الجيب»
وهي رسالة صغيرة من مجموعة الرسائل الاليمية : «اعلم وفلك الله تعالى ان هذه
الرسالة فربدة في دقتها ، وهي من العلوم التي يجب سترها ، ولا يجوز كشفها
الا لربابها . وهذه الامرار اجرى الله العادة عند اهل الطربقة ان لا نأمن
 احداً كلامنا .» ثم يعمد الى من تقع الرسالة بين يديه فيحذر و يقول :
«هي امانة بين يديك يامن حصلت بيدك ، فان كنت من اهلها حصل لك
مرادك ، وان كنت من غير اهلها فابحث عن اربابها .» فقد كان يخشى ان
 يؤول به الامر كاآل بالحلاج ، لذلك بذ كره كثيراً في شعره ونشره
 ويتخذه عبرة لنفسه :

فن فهم الاشارة فليصنهَا والا سوف يقتل باللسان

ويقول :

علمـهـ اـكـلـ عـلـمـ شـائـهـ اـعـظـمـ شـانـ

هام في لما رأني في مقاصير الجان
لا اسميه فاني خائف حد السنان

.....

الأنصار :

ولكن نقرأ آخر ليس بالقليل اعجب بابن عربي ورأى فيه ولماً ومتعبداً صادقاً له ، كرامات وصلوات مستحبة ، فدافع عنه ، وناضل في سبيله ، وحال ان ينزع من الازهان ما عدق فيها من التعامل على الصوفيين عامة والتطرفيين منهم خاصة . وقد انتصرت فئة المبذلين على الناقفين ، وايدت صلاح تعاليمه وصدق نيته وفائدته مصطفاته . وقد دافع عنه الشيوخ في مختلف الأئم والبلدان واصدروا الفتاوي التي تظهر للعامة صلاحه . منها قتوى شيخ تركي عاش في ايام السلطان سليم بثبت فيها ان الشيخ الاكابر ، والدليل الصادق ، وقطب العارفين ، وامام الموحدين محمد بن علي العربي الطائبي الخامنوي الاندلسي قد اظهر كتاباً مدحشة وعجبات غريبة ، وان هذه الكتب والكرامات يعتقد بها العلماء والرجال المؤمنون . وان الذي يتعرض عليه ينخطي ، والذى يصر على اعتراضه يضل . وعلى السلطان واجب معاقبته واعادته الى الصواب .

ولكن كيف يؤول ما ذكره ابن عربي عن الله عند كلامه عن الاتصال ، وما اورده عن الجيلوية ووحدة الوجود ؟ وكيف نوفق بين هذا التطرف الذي ادى بالحلال الى الموت وبين اجماع علماء الاسلام من ترك وفرض وعرب على تأييد تعاليم ابن عربي ؟

يرى بعض تلامذته في شطحاته وخروجه على آلة السنة اثراً لانصاله بالله .
فيقول احدم : « ولو لا شطحه في الكلام لم يكن به بأس ، ولعل ذلك
الشطح وقم منه حال سكره وغيته » . وبقول آخر : « الذي نفهمه من
كلامه حسن ، والمشكل علينا نقل أمره الى الله تعالى ، وما كفنا اتباعه ،
ولا العمل بما قال » .

ولكننا نعتقد ان ابن عربى كان أكثر تقية من الحلاج كما رأينا ذلك
في المقطام التي وردت ، وهذا الس Starr اللغظى والعملى يقصيه عن العامة ولا
ينبه انظار الافراد اليه . لأن الامراء في تاريخ الدوليات العربية لم يضطهدوا
الفلسفة الا تحت تأثير الشعب . فابن عربى الذى عرف هذه الحقيقة الاساسية
للحافظة على حياته ضن بتعاليمه على العامة واخفاها عن الطالبين في اسلوب
بعيد عن افهام المبتدئين ، واخذه بعيداً ايضاً عن اذواق السالكين .

ثم انه تقرب الى الناس بزياراته الاماكن المقدسة وبالتبrik بها ،
وخصوصاً بوضع الكتب التي تتكلم عن امور الدين كالكتابين الذين
وضعهما بعد وحي النبي وهم الفتوحات المكية والفصوص . فها يشعرانا بأن
الكاتب قد درس الدين الاسلامي درساً فيه كثير من العمق والاجتهاد ،
وقد عمد عدد كبير من علماء الامم الاسلامية الى شرحها ودرسها ونشرها
بين العامة .



ابن الفارض

(٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) (١١٨١ - ١٢٣٥ م)

حياته :

رأينا عند درسنا ابن عربي انه كان شاعراً . وكان الحلاج شاعراً ايضاً ولم يقتصر الامر على مدح المتصوفين فقط بل تقدّمه في القرن الثاني المجري شاعرة متصوفة تدعى رابعة العدوية عاشت في وحدة النساك في البصرة وماتت ولها من العسر ثمانون عاماً . وشعرها مشهور بتألقه المتصوفون في حلقات الذكر . ولكن شاعر التصوف الحقيقي الذي سار صيته وذاع شعره على جميع الالسنة هو دون شك ابن الفارض .

فالعربي منذ الجاهلية يعمد الى الكلام المفهوى الموزوف يعبر به عن الملاطفة التي تثور في صدره فكان الشعر الوسيلة المثلية للتعبير عن احساساته وعن آلامه وافراحه وأماله . وقد تكون هذه الآمال والآلام والأفراح دينية فينشح الدين بوشاح الشعر كما نرى ذلك عند المتصوفين عامه وابن الفارض خاصة .

حياته سلسلة من الامارات والغرائب . أشهر شخصية عرفها التصوف العربي منذ شأنه الى الان لم يبق اديب او متصوف او مغن او قرآن بابياته . ولكن رغم شهرة اسمه ، وانتشار شعره ، وذيوع كراماته ، واثباته صالحه

فإن الذين عنوا بدرسه قليلاً نادرون . فنـكـاد نـجـهـلـ فيـ الـوقـتـ الـحـاضـرـ قـساـ كـبـيرـاـ منـ نـشـأـهـ وـأـمـرـتـهـ وـالـبـيـتـةـ المـزـلـيـةـ الـقـيـ نـشـأـ فـيـهاـ ،ـ وـالـمـعـدـنـ الـذـينـ درـسـ عـلـيـهـمـ ،ـ وـالـقـاـفـةـ الـقـيـ قـبـسـهاـ فـيـ حـدـاثـهـ .

هل كانت علومه دينية بحثة أعدت ذهنه لاقتبال التصوف؟؟ أم كانت مزيجاً من الدين والفلسفة؟ أم كانت اديبة فلسفية، فنشأ على الكفر بالدين ثم تحول نحو الغزالي من عالم التجارب والاستقراء إلى عالم الأطهاف والأثيرائق كل ذلك لا تبلغه معرفتنا ، ولم يقله أحد من المترجمين أو المعاصرين له .

كل ما نعرفه انه يدعى الشيخ ابا حنصن عمر بن بي الحسن بن المرشد ابن علي ، وانه حموي الاصل ، يسكنى بابن الفارض ، نسبة الى ابيه الذي كان يفرض ما للنساء على الرجال . ولد في مصر عام ٥٢٦هـ وتوفي فيها سنة ٦٣٢هـ ودفن في القراءة في سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض .

وأكـنـ ماـ الدـافـعـ الـذـيـ آهـابـ بـهـ إـلـيـ حـيـاةـ التـقـشـفـ وـالـزـهـدـ وـالـفـنـاءـ بـفـيـ حـبـ اللهـ ،ـ وـالـابـتـاعـ عنـ الـعـالـمـ الـدـنـيـ ؟ـ هلـ دـفـعـهـ الـفـقـرـ الـىـ مـشـلـ هـذـهـ الـحـيـاةـ ؟ـ أـيـشـ مـنـ نـعـيمـ الـدـنـيـ فـالتـجـأـ إـلـىـ الصـلـاـةـ وـانتـظـارـ السـعـادـ فـيـ جـنـاتـ النـعـيمـ ؟ـ انـ مـاـ الـدـبـنـاـ مـنـ الـمـلـوـمـاتـ الـقـلـيلـةـ عـنـهـ ثـبـتـ لـنـاـ اـنـهـ كـانـ يـبـعـشـ فـيـ بـجـبـوـحةـ وـانـهـ كـانـ قـطـبـاـ صـوـفيـاـ تـؤـمـهـ وـفـوـدـ الـمـرـيدـيـنـ وـالـشـيوـخـ مـنـ كـلـ مـكـانـ ،ـ فـيـزـلـوـنـ دـارـهـ عـلـىـ الـرـحـبـ وـالـسـعـمـ ،ـ وـبـنـفـقـ عـلـيـهـمـ مـاـ مـالـهـ اـخـاصـ ،ـ وـبـيـكـرـمـ وـفـادـتـهـمـ ،ـ وـيـسـهـلـ لـهـ سـلـلـ الـمـيـشـ ،ـ فـيـ جـمـونـ إـلـىـ بـلـادـهـ شـاـكـرـيـنـ ،ـ اوـ يـنـتـقـلـوـنـ إـلـىـ بـلـادـ أـخـرـىـ لـاـهـجـيـنـ بـالـثـنـاءـ عـلـىـ كـرـمـ الشـيـوخـ وـسـخـائـهـ .ـ ثـمـ اـنـ اـبـنـ الـفـارـضـ لـمـ يـعـتـدـ فـيـ الـانـقـاقـ عـلـىـ اـخـوانـهـ الـمـتـهـوـفـيـنـ عـلـىـ صـلـاتـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ ،ـ كـانـ يـغـلـلـ سـوـاهـ مـنـ الشـيـوخـ اـضـعـابـ التـفـوذـ ،ـ وـانـاـ كـانـ يـهـربـ مـنـ ذـوـيـهـ

السلطان ، وبعيش بعيداً عنهم ويتزقم عن صلاتهم ، وبنفق حياته في جو مشبع بالروحية الصوفية ، بينما هم يتصفون او يتمتعون بلذائذ الملوك ، ويجهلون مساعداتهم ، ويرى فيها تقليداً لحربته وتلويناً لطهارة يده . وليس ادل على ذلك من الحادثة التي يرويها سبطه .

يمكن ان السلطان محمدأ الملك الكامل كان يحب اهل العلم ويماضي في مجلس مختص بهم . وكان يميل الى فن الادب . فتذاكر معهم يوماً في اصعب القوافي . فقال السلطان : من اصعبها الياء الساكنة . فمن كان مشكراً يحفظ شيئاً منها فليزيد كرها . فتذاكرها في ذلك فلم يتتجاوز احد منهم عشرة ايات . فقال السلطان : انا احفظ منها خمسين يبتاقصيدة واحدة وذكرها . فاستحسن الجماعة ذلك . فقال القاضي شرف الدين كتب سره : انا احفظ منها مائة وخمسين يبتاقصيدة واحدة . فقال السلطان : يا شرف الدين جمعت في خزانتي اكثير دارين الشعرا في الجامالية والاسلام وانا احب هذه القافية فلم اجد فيها اكثير من الذي ذكرته لكم ، فانشدني بهذه الايات . فانشده قصيدة الشیخ البائیة التي مطلعها :

سائق الاظمان يطوي البيد طي منعماً عرج على كثبات طي

قال السلطان : يا شرف الدين ان هذه القصيدة ؟ فلم اسمع بيتها ، وهذا نفس محب . قال : هذه من نظم شرف الدين عمر بن الفارض . فقال : وفي اي مكان مقامه ؟ فقال : كان مجاوراً بالمحجراً ، وفي هذا الزمن حضرلى القاهرة ، وهو مقيم بقاعة الخطابة في الجامع الازهر . فقال السلطان : يا شرف الدين خذ منا الفدينار وتوجه اليه وقل عنا : ولدك محمد بسلم عليك

وبسائلك ان تقبل هذه منه بورسم القراء الواردین عالیک . فاذا قبلها فاسأله
المحضور اليها لأنخذ حظنا من بركته . فقال : مولانا السلطان يعني من
ذلك . فإنه لا يأخذ الذهب ولا يحضر . لا اقدر بعد ذلك ان ادخل عليه
حياة منه . فقال السلطان : لا بد من ذلك ، فاخذ القاضي الذهب وقصد الى
مكان الشيخ ، فوجده واقفاً على الباب بانتظاره . فابتدأه بالكلام وقال :
مالك ولد كري في مجلس السلطان ؟ رد الذهب اليه ولا ترجم اليه سنة .
فرجع وقال للسلطان : وددت ان افارق الدنيا ولا افارق رؤية الشيخ سنة .
فقال السلطان : مثل هذا الشيخ يكون في زمانه ولا أزوره . فلا بد لي
من زيارته ورؤيته . فنزل السلطان في الليل الى المدينة مستخفياً هو وفخر
الدين عثمان الكاملي وجاءه من الامراء . فلما احس بهم الشيخ خرج من
الباب الآخر الذي يظهره الجامع وسافر الى نهر الاسكندرية ، واقام بالمار
اباما (١)

اخلاقه

لا نعلم اذا كان الفخر نعماً او كلاماً في اخلاق المتصوفين ، ولكننا
نعلم - كما تقدم - ان ابن عربى لم يكن كثير التواضع ، ولم يرض ان
يقوم بدور ثبوى بين المسلمين عامة والمتصوفين خاصة ، بل حاول ان يجعل
من نفسه مختلفاً فوق كل المخلوقات . اما ابن الفارض فلم يقف عند هذه

(١) قلما امين الحودي في مقدمة : جلاء القامض في شرح ديوان
الفارض — بيروت ١٩٠٤

الدرجة من المفلاة ، وإنما تمدى ابن عربي ، ونظر إلى أبعد ما نظر إليه
فرأى نارة تحلي الله في ذاته ، ورأى نارة أخرى أنه علة الوجود أو السبب
الذي من أجله سارت السيارات ، وثارت الكواكب ، وحدث الجماد والنبات
والحيوان . فهو الذي يقول في النائية الكبرى :

وبدرى لم يأفل وشمسى لم تغب
وبي تهندى كل الدرارى المنيرة
وانجم افلاكى جرت عن تصرفى
بنلىكى واملاكى للسكى خرت
... ولست ملوماً ان ابى مواهبي
وامنح اتباعى جزيل عطياتي (١)
ويقول في مكان آخر من القصيدة نفسها :

... وكاهم عن سبق معناي دائى
بدائرى او وارد من شريمى
وانى وان كنت ابن آدم صورة
فلي فيه معنى شاهد بابوى ...
... ولو لا ي لم يوجد وجود ولم يكن
شهود ولم تتم عهود بذمة

فلا حي الا عن حياته وطوع مرادي كل نفس مريدة . . (١)

وبتابع القراء على هذا الوتر حتى يخاله القاريء موسماً أو موسمأً أو كافراً يشaim الحلاج وغير الحلاج من المطرفين المارقين عن الدين والسنّة. ولا شك في أن سبب دعثتنا هو ما ذكره عن أخلاق ابن العارض القانع بما تيسر لديه من أمر معاش ، لا يطبق صحبة السلاطين ولا يقبل عطية ، ولا يفتّش عن الشهرة ولا يمكن أحداً من بيده . فكيف يتوصّل رجل هذه صفات إلى أن يجعل من نفسه علة الكون وما فيه من كائنات ثنوية ؟؟؟

تمر بالتصوف حالات نفسانية عصبية يتلاشى فيها كل ما يحيط به من المحسّسات ، ولا يبقى من ذاته سوى فكرة وجوده . وهذه تتعلق بالذهب الذي يقول بـان الله كل شيء . وإن هذه الفكرة هي جزء من الحق الأكابر ويدرك المتّصوف أنه الفرد الواحد ، او من الأفراد الفيليين الذين توصلوا إلى فهم حقيقة الكون الفاني المتقلب وحقيقة الله الثابتة اللامتناهية ، فيرتفع بتفكيره إلى أعلى درجات الوجود ، ويبلغ به الفخر إلى ما بلغ عند ابن عربي وابن العارض .

ولكننا نود أن نشير إلى أن هذين المتّصوفين لا يتفقان في نفسيتها فهما على طرق تقيض عرف الأول مكانته الروحية ، خاول ان يجعل لنفسه مكانة عالمية بالتأثير في عقول المربيين والشيخوخ المجددين بها وضمة من الكتب التي تجمع بين العلم الصحيح والدين الصادق والشموذة والكفر . وادرك الثاني

عظم مكانته الروحية ، ولكنكَ لمْ يُحاوِلْ قط ان يبقى عالياً بعدها عالمياً زائلاً ،
لظل بعيذاً عن المادة منصرفاً الى تأملاه واحلامه الصوفية فانعمَ من السعادة
بالانجذاب والوصل وهم غابة الغایات . لذلك لا يفطن الناس الى ما جاء في
شعره من الفخر والامراف في مدح النفس .

لا سبيل الى انكار صفاته الاخلاقية التي تحلى بها فقربته من قلوب
معاصريها ، وجعلت منه ذلك القطب الصوفي الذي تتقاطر عليه وفود الدارسين
والفنانين عن الحقيقة في كل قطر وبلد . ثم اننا لا نقدر ان نختار حفيذه
الذى الصدق يجده كل ما يمكن ان يوجد في الانسانية من صفات السكمال
لانه بصورة لنا بشكل الملي اكثراً منه انساني . وابن الفارض كسواه من
الله وفين انسان يجمع في نفسه روحانية المذهب وضعف الانسانية . كان
جميلاً صبوراً ، قسم الوجه ، مهيب الطامة ، ايض البشرة ، عليه روعة
وجلال . وكان عذب النطق ، فصيح البيان ، منفتحاً بالاصناف المقدمة يرددما
في كل المناسبات ، وبوثر به في اذاعان ساميته من اصحاب الدين والدنيا .
وكان — على خلاف معظم الشيوخ المتصوفين — عنيف اليد من مال
موبيده ، بعيداً عن الدنيا ، محباً للمذهب ، لا يمكن احداً من تقبيل بده ،
ولا يرسو مكافأة مادية على جهاده الروحي .

فاذَا احتممت كل هذه الصفات في رجل واحد ، وكان لصاحبه من
المال ما ينكبه عن الاستبعاد ، وما يساعدك على اكرام ضيوفه وزائره ،
نزول دعثتنا من المكانة السامية التي كانت لابن الفارض في قلوب معاصريه
ثم في قلوب الاجيال التي تلته وتناقلت احاديث كراماته وذكريات حياته .

ابن الفارض والحب :

كان عاشقاً لشيفين : العزلة والله . فانقسمت حياته بين هذين القطبين
 فناه بجوار مكة وجبالها وهادها خمسة عشر عاماً نافراً من الناس ، مبتعداً
 عن الدنيا التي يتبعدون لها ويفتنون في حبها القسم الاكبر من حياته ، مفتشاً
 بين الامكنته المقدمة عن اسماي بذكره بامر دبني ويقربه من النبي والصحابة
 والمقربين اليهم :

فلي بعد اوطناني سكون الى الفلا

وبالوحش أنسني اذ من الانس وحشني

كل ما كان يراه هناك بذكره حبيبه ويفجر نفسه الرقيقة في بحر من
 الشعور الدبلي العميق ، لذلك نراه يردد في كل حين اسماء تلك الامكنته
 المذوية جرسها على اذنيه ، وقلما تخلو قصيدة له منها :

انشر خزامي فاح ام عرف حاجر

بام القرى ام عطر عزة ضائع ؟ (١)

ثم عاد الى مصر . والاهل هناك بانتظاره . فالحياة في القاهرة غيرها في
 مكة . فهنا الاولاد والزوجات والاصحاب والتلاميذ يريدون ان يأخذوا
 حظهم من قربه والتحدث اليه والامتناع الى كلامه . فهو اذا عبر على الابتعاد

عن حبيبه الاَكْبَر ، وهو لذلك متألم متبرم ، ينشد الخلاص من هذا الامر الاجتماعي :

بين اهليه غريبآ نازحا وعلى الاوطان لم يعطفه لي (١)
 وهو يحن الى العودة الى حيث كان لينفرد الى نفسه ، ولكن الانتقال من القاهرة الى ام القرى او الابتعاد عن المنزل لمدة طوبلة ليس من الامور البسيطة التي يقدر الانسان ان يفعلها في كل حين ، فيتردد ويختار في امره . ولا يرى بدأً من زيارة بلاد الشام . فيشد الرحال اليها وينتقل الى مدينة القدس ، فيقترب من الاماكن المقدسة التي تذكره باليسوع وتعاليمه ومراجع الرسول العربي . ثم يتابع رحلته الى حواضر الشام . ويزور دمشق ماوبتعرف الى شيوخها ، ولكنه لا يطمئن اليها كما اطمأن الفزالي وابن عربي . فقد كان وباء الطاعون منتشرآ فيها ، يفتک بسكنها فتكا ذريعاً ، تخشي على نفسه من الاقامة فيها ، وحن الى الرجوع الى مصر ، وشعر عندئذ بعذوبة الاطمئنان الى المنزل الزوجي بعد ما قاساه من مشقات السفر ، وبعد ما لاقاه من المحبات

ورباها منيتي لولا وبها	جلق جنة من تاه وباهى
قلت غال برداها برداها	قيل لي صف بردى كورثها
ولعبني مشتهاها مشتهاها	وطني مصر وفيها وطري
وانفسي غيرها ان سكنت	با خليلي سلامها ما سلامها (٢)

(١) ص ٥

(٢) ص ١٣٧

عاد الى وطنه ، ولكن لم ينصرف بكليته الى الاسرة والاصحاب .
وانما كان يذهب كل يوم الى جبل المقطم فيقيم هناك وقتاً طويلاً يتبعده
ويتذكّر ويجهاد في سبيل الوصول الى الحق ، او يذهب الى الجامع الازمر
فيجتمع الى الشيوخ والطلاب ، يتحاورون في امور الدين ، ويبدأ كرون
اخبار الصالحين ، واصحاب الكرامات المشهورة ، والاعمال المشكورة ،
ويقرأون الكتب الدينية ، ويعقدون جلسات الذكر ، يجهادون معًا لبلغ
المراتب العالية ، او للوصول الى مرتبة السُّكال .

كان ذلك العهد عهد جد وعمل . فانصرف ابن الفارض الى الوضع
والباس افكاره الشوب الشعري الذي يطالعنا به الاذ في الديوان . فكان
يستوحى في سكينة المقطم وهو دوته ذكريات الديار المقدسة ، فينظم في
ذلك القصائد الرقيقة التي تذوب بالعاطفة السامية ، ويستوحى من جلسات
الصعب بين الدعوات والذكر والصلوات والصوم والنخشاف لنظم نوع آخر
من القصائد الصوفية .

اما حبه ^{للله} فهو حديث كل ادب وكل صوفي . كانها بالعاطفة الصوفية
خرجت من صدور جيم التصوفين لتتجتمع في صدره وحده . فهو في جهة
شاعر رقيق قد لا يجد له مثيلاً بين جيم الشراء الذين عرفتهم الآداب
العربية . يجمع الى تلك الرقة جيم العناصر التي امتاز بها امراء الشعر
العربي ، وجميع المؤدلات التي تعدد لتبوء مرتبة سامية بين اصحاب القوافي
و لكنه لم يخل مما تفرد به عصور الانحطاط من هندسة لفظية وصور بدائية .
عرف العرب شراء كثرين . لكل واحد منهم ميزة اختص بها ،
واصبحت له وسيلة للابداع والاجادة . فكمن منهم الرثاؤون والمداهون
والمحجاوون والوصافون ، وكان منهم ايضاً المتنزلون . وهذه الفتنة هي اقرب

الشعراه الى القلوب لما في شعرهم من رقة تحرك الماطفة ، وما في ابياتهم من معانٍ لطيفة . ولا شك في ان ابن الفارض كان من اكثراهم احترازاً للمعاني فأخذ كل ما عرفه الجاهليون والامويون والعباسيون من تنايه واحترازات وهذبها واذابها في حبه الجديد الطريف ، حب الله .

امضي المجنون — كما يروي مورخو الادب — سفي شبابه نائماً باكيماً شارد اللاب مناجياً طيف ايلى ، آنساً بالظباء لانها تذكرة بانداق حبيبته وجيدها ، وانفق ابن الفارض شبابه وكهوله سليب القاب ، مفطرب الاعصاب ، متلعم اللسان ، كان كل ما في العالم من مادة وصور واشباه اعراض ، كان كل ذلك اوهام لا حقيقة لها امام النور الساطع والمنارة الوضاءة . امام الحق

انني ابن الفارض نفسه في حبه . فان الدارس لا ينتهي من قراءة ديوانه الا وهو معجب بهذا الشاعر الذي امضى حياته ، اما في الفقر نائماً مع الوش كشمراء بني عذرة ، واما متوجداً منفرداً الى نفسه ، واما مصروعاً لا يستيقن الا يعود الى ذكر الله قوة جديدة ومعانٍ جديدة . فهو النائم المتوحد المصروع وهو النائم في كل همة من الطبيعة وكل لون وكل صوت وكل صدى من اصدانها العديدة . كل اثر من آثارها ينقر وترأ من اوتاره فيجعله في شبه غيبوبة من التأثير والايمان . فلا عجب اذاً اذا رأينا قصائد تدور حول نقطتين اساسيتين : الاولى ذكر الحبيب وصفاته ، والثانية وصف حالة الماشق وما وصل اليه من الشحوب والفضن والمذاب .

يمار في وصف الله ، فهو تارة مادي عالمي في رسنه ، يستعيض من الشعراه العاليين طرقاً ، ووسائلهم في رسم مشوقاتهم ، فاذا به يرى الله
، وبطريقه سحر لو ابصر فعله هاروت كان له به استاذًا

عنت الفزالة والفزال لوجهه متنفأً ، وبه عياذ لاذا
خصر الامر عذب الم قبل بكرة قبل السوال المسك سادوساً
من فيه والاحاظ سكري بل ارى في كل جارحة به نباداً ...
كالفصن قدأ والصباح صباحة والليل فرعاً منه حاذى الحاذى

وبنذهب الى مثل هذه التثنائيه المرصده بالبديع اللنظري حتى تكدر تلاشى
الروح الصوفية ولا يبقى منها سوى رقم خافت في وحدة القصيدة . هذا
الشعر الفزلي المادي كان سبب خلود ابن الفارض عند كثيرين من الذين لا
يتذوقون المذهب الصوفي ، ولا تساعدهم افهمهم على تتبعهم في مراحلهم العديدة
وسبب انتشار اسمه على السنة العشاق والمغنين وهواء الشعر .

وهو نارة أخرى يرتفع عن الارض ، يرتدي جناحي المجنوب العاشق
الذي تضاءلت شخصيته امام ناظريه . وتلاشى كل ما في العالم من مظاهر
متعددة مختلفة الالوان والاصوات والاشكال والاحجام . كل ما يقع تحت
الحس وما هو خارج عن نطاق المقولات هو شيء واحد ، هو الحب .
تنذر ذات ابن الفارض ولا يرى الا كائناً واحداً هو الله . الله هو كل
شيء كما يقول الحلوانيون وكما يذهب اليه ابن الفارض : ابن عربي . وغابة
الغایات في هذا العالم الفاني ليست في تفهم جزئياته والتعرف الى خواص كل
منها ، ففهم الشخصية الفردية والمواجز التي تفصلها عن العالم الخوارجي .
بل هي في تلاشى الذاتية واندثار عالم الحس لتكون بأجمعها مخلوقة
واحداً يشمل الكل . فهو الكل وكل شيء هو . كل جزء عالي هو هو .
هذه هي فكررة ابن الفارض الحقيقية . يتلعم بها لسانه في كل آن وينتشي
غضب رجال الدين وتعصب العامة الجاهلين . وقد خشي قبل هذين الفريقيين

ثورة ضميرة، فناء في يداه فكره حتى امتدى إلى الحقيقة . ولكن ظل
خائفاً متربداً لا يجرؤ على الجلوس بها لما يكتفه ذلك من عناء الاضطهاد فهو يقول
في «نظم السلوك» :

ولي من اتم الروءيتين اشارة نزه عن رأي الحلول عقديتي «١»
ولكن الحقيقة هي غير ما يقول في هذا البيت . فاستمع اليه بقول في
مقطع آخر :

وَمَا زَلتُ إِلَيْهَا وَإِلَيْيِ لَمْ تَزُلْ
وَلَا فَرْقَ بَلْ ذَاقَ لِذَاقِي أَحْبَتْ

ويقول :

وَصَرَحَ بِأَطْلَاقِ الْجَمَالِ وَلَا تَقْلِيلْ	بِتَقْيِيدِهِ مِيلًا لِزَخْرَفِ زِينَةِ
فَكُلَّ مُلْبِحٍ حَسْنَهُ مِنْ جَمَالِهَا	مَعَادِلَهُ بَلْ حَسْنَ كُلِّ مُلْيَعَةِ
بِهَا قِيسَ لِبَنِي هَامِ بَلْ كُلَّ عَاشِقٍ	كَمْجُونُونَ لِيَلِي أَوْ كَثِيرُ عَزَّةِ ..
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ بَدَتْ بِظَاهِرِ	
فَظَنُوا سَوَاهَا وَهِيَ فِيهَا تَجَلَّتْ .. (٢)	

ويقول في قصيدة أخرى :

(١) ديوان ص ٥٧

(٢) د ص ٥٤

تراه ان غاب عني كل جارحة
 في كل معنى لطيف رائق برج
 في نفحة العود والناري الرخيم اذا
 تآلفا بين الحان من المزج
 وفي مساح غزلان الخائل في
 برد الاصاليل والاصباح في البلج
 وفي مساقط انداء الغمام على
 بساط نور من الازهار منتسج
 وفي مصاحب اذیال النسم اذا
 أهدي الي سحيرا اطيب الارج
 وفي الثنائي ثغر الكاس مرتشفاً
 دريق المدامة في مستنذه فرج (١)

ولا يقف به الامر عند هذا القول الصريح ، بل يحمل في مكان آخر
 على المعتقدين بالثنوية ابي القائلين بن الانسان يؤلف كياناً مستقلاً والله
 يؤلف كياناً آخر ، ويذهب الى انه كان في عهده الاول من اصحاب هذ
 الرأي ، ولكنكه وجد ان الحقيقة في وحدة الوجود . . .

كذا كنت حيناً قبل ان يكشف الغطا
من اللبس لانفك عن ثنوية ...

أخال حضيبي الصحو والسكر معرجي
اليها ومحوي منتهى قاب سدرتي

فليما جلوت العين عني اجتليتني
مفيقاً ومني العين بالعين قرت
فن بعد ما جاهدت شاهدت مشهدتي
وهادئ لي اي اي بل بي قدرتي
وبي موقفي لا بل الي توجهي
كذاك صلاتي لي ومني كعبتي (١)

هذا هو الحبيب الحقيقي الذي افتتن الشاعر المتصرف بجمالياته . فهو النجم
الساهر ، والقمر الساري ، والفزانة الشارقة ، والتراب المزهر ، والشجر
الشمسي ، والنور الساطع ، والصفور الطائر ، والحيوان النائم والانسان المفكر
يراه في كل رفة جفن ، وخفنة قلب ، وهمسة نسميم ويتوصل به الامر
إلى مشاركة علماء الكلام في رأيهم بافعال العباد ونسبتها في الحقيقة إلى الله
وفي المحاز الى الفاعل الارضي . فلا اسباب ثانوية في العالم دامما كل ما هناك
من علل يعود الى الحبيب الاكبر والسبب الاول ، الى الله :

وكل الذي شاهدته فعل واحد
 بفرده ولكن بمحبب الاكة
 اذا ما ازال الستر لم تر غيره
 ولم يرق بالاشكال اشكال ريبة ...
 فاشكاله كانت مظاهر فمله
 بستر تلاشت اذ تجلى وولت (١)

تمثل هذا المتصوف وما هو عليه من روح حسامة ، وشعور صادق ، تتمثله
 ذاتاً في وجده ، تائهةً في عاطفته . ثم تمثل بعد ذلك موقفه من هذه الطبيعة
 الحسية التي تغمر اذنيه باصدائهما ، وعينيه بالوانها وجسمه باحساساتها ، هذه
 الطبيعة التي يتمثلها لانها مظهر من مظاهر حبيبه ومعبوده . الحبيب قرب ،
 هو في هذه الشجرة ، وهذه الزهور ، وهذه الحديقة . هو مستتر في كل شيء ،
 ولكنه لا يتجده في شيء منها . فكيف السبيل الى الوصول اليه والتمتع
 بطعلنته وفهم حقائقه . . . اذا تمثلت كل ذلك فقد وقفت على مير من اسرار
 ابن الفارض . فهو في معظم قصائده مفتش لا يجد شيئاً . وحائر لا يستقر
 على امر ، وقائمه لا يهتدى الى منار . هو يسعى ولا يعرف ابن الطريق الحقيقي .
 يحن الى الحبيب ويتألم لفراته . فهو هزل ضعيف سقيم هذب . ساءت حاله
 وغارث عيناه ، واضطربت ركبتيه ، وجف لسانه ، وهزل جسمه . فليس
 في الشعر العربي ، ولا مقالة في الاطلاق ، شاعر تذوق عهد الحيرة والقلق

كما نذوقه ابن الفارض ووصفه بدقة وبلاعة كما وصفه في تصائه العديدة .
 فهو يقول في احداها :

فَلَمْ ترَكْتِ الصَّبَرَ فِي كُمْ شَبَحًا
مَا لَهُ مَا بِرَاهِ الشَّوْقِ فِي

ويقول في ثانية :

وَقَدْ بَرَحَ التَّبْرِيجَ يَ وَابَدِي
وَابَدِي الْفَنْيَ مِنِي خَفِيَ حَقِيقَتِي ...
فَلَوْ كَشَفَ الْمَوَادِيَ وَتَحَقَّقُوا
مِنَ الْلَّوْحِ مَا مِنِي الصَّبَابَةَ ابْقَتَ
لَا شَاهَدَتْ مِنِي بَصَائِرَهُمْ سُوَى
تَخْلُلَ رُوحِ بَيْنِ أَثْوَابِ مَيْتِ (١)

ويقول في ثالثة :

وَقَلْ تَرَكْتِ صَرِيعًا فِي دِيَارِكَمْ
حِيَا كَمِيتَ يَعِيرُ السَّقْمَ لِلسَّقْمِ

فن فؤادي لم يب ثاب عن قبس
ومن جفوني دمع فاض كالديم (١)

ويقول في رابعة :

خفيت ضنى حتى لقد ضل عائدى
وكيف ترى العواد من لا له ظل
وما عثرت عين على اثري ولم
ندع لي رسما في الموى الاعين النجل (٢)

ويقول في خامسة :

خفيت ضنى حتى خفيت عن الضنى
وعن بره اسقامي وبرد اوامي (٣)

هذا هو الحبيب القريب البعيد الذي يحاول ان يتقرب منه . وهذه هي
حاليه من الوجد والتحول والضنى اظهراها بكثير من الفن الشعري حق . بتنا
ظنن ان ليس هناك من خيال يقدر على تيشيل ابن الفارض واعطائه صورة
جمانية ، فكانه انسان في غير مادة ، او كانه روح مستقلة تخبيء بدوافع
حاجة الى جسم . فكيف توفق هذا العاشق الكبير الى التوصل الى
محبوبه الخطير ؟؟ وكيف قدر على ازاله الحجب المديدة الكثيفة التي تفصل

(١) د ص ١١٥

(٢) د ص ١١٧

(٣) د ص ١٤٠

بين الالوهية والانسانية ??

عبدت طريقه منذ عهد بعيد ، اعدها اناس سلکوها من قبل . فدار عليها وعاني في رحلته الاهوال ، ولكنه تغلب عليها حتى تحقق امله . لاح له الأفق الذي السحري .

لم يؤثر عنه شيء من النثر . ولكتنا نقدر ان نعتمد على قصيدة « نظم السلوك » لدرس تطور نفسيته وانتقاله من عهد الى آخر . عهد الجاهلية ، ثم الحب ، ثم الحيرة فالتفتيش ، ثم المعايدة فالوصول . سار ابن الناشر في طريق المقامات يجتازها واحدة واحدة ، واعد نفسه الامارة بالسوء ، فظهرت لها من ارجاسها وعلمتها الطاعة والخضوع . وترك الدنيا ومتاعها وأثار عاليها الفقر . وخلف المنطق العقلي في زاوية من النسيان ، لأنها بقصر دونه بلوغ تلك المرتبة الروحية ، واستمعان بذلك والدعوات والمحامدات والصوم حتى لاح له السر الخفي وتساقطت الاستمار واحداً بعد واحداً ، وواجه الحق .

قال في تقصير المقل عن ادراك الله :

هذاك الى ما احجم المقل دونه

وصلات وهي مني اتصالي ووصلتي (١)

وقال في ترك الدنيا :

ومن درجات العز امسيت مخلداً

الى دركات الذل من بعد نخوتني

فلا باب لي يغشى ولا جاه يرجي
ولا جار لي يحمى لفقد حبيبي
وقال في الفقر :

ويمتها بالفقر لكن بوعشه
غنية فالقيت افتقاري وثروتي (١)
وقال في ذم الغنى :

فلم يدن منها موسر باجتهاده
وعنها به لم يبا مؤثر عسرا (٢)

وقال في رياضة النفس وكبح جماحها :
فنفسك كانت قبل لوامة متى

اطعمها عصت او اعصي كانت مطاعي
فاوردتها ما الموت أيسر بعده

وأهبتها كيما تكون مريحتي (٣)

وقد جمع مقاماته العديدة في مقطع طريف من تلك القصيدة
حيث يقول :

(١) د ص ٤٧

(٢) د ص ٤٩

(٣) د ص ٥٠

رجمت لاعمال العبادة عادة
 واعددت احوال الارادة عدي
 وعدت بنسكى بعدهت كي وعدت من
 خلاعة بسطي لانقباض بعفة
 وصمت نهاري رغبة في مثوبة
 واحييت ليلي رهبة في عقوبة
 وعمرت اوقياً بورد لوارد
 وصمت لسمت واعتكاف لحمرة
 وبنت عن الاوطان هجران قاطع
 مواصلة الاخوان واخترت عزلتي
 ودققت فكري في الحلال تورعاً
 وراعيت في اصلاح قوتي قوتي
 وانفقت من يسر القناعة راضياً
 من العيش في الدنيا باليسر بلاغة
 وهذبت نفسي بالرياضه ذاهباً
 الى كشف ما حجب العوائد غطت

وَجَرْدَتْ فِي التَّجْرِيدِ عَزْمِي تَرْهَدْأُ وَآثَرْتْ فِي النَّسْكِ اسْتِجَابَةً دَعْوَيْ (١)

ثم ان هذا المتصوف — كسواه من الفلسفه والمفكرين العرب — لم يتأثر على فكره واحدة لتمثيل الله . فإذا به يزعم تارة ان حبيبه الذي جاهد للوصول اليه هو مخلوق ثان جميل بلائق به جميع الصفات الحسنة ، كما نرى ذلك عند معظم المتصوفين الذين حافظوا على الایمان السنی في قلوبهم فتمثيل الله كما وصفه علماء الكلام . وبذهب تارة اخرى الى اعتناق وحدة الوجود كما رأينا ذلك جلياً في المقاطع التي استشهدنا بها . فالروح الصوفية التي تستثنها من مجموعة شعره تختلف باختلاف القصائد . فهو في بعضها مطمئن النفس بذكرا في الشعر ما يذكره مؤرخو التصوف في النثر ، امين على دينه ، لا يخرج عن فكره متطرفة ولا قول حلولي ولا مذهب فلسي ، وهو في البعض الآخر محروم الخيال لا يراعي اصول الدين . وقد جمع بين هذين النظرين في «نظم السلوك» وجعل فيها كل ما مادرستاه من مميزات شخصية . وقد رأينا ابا الفداء لا يذكر له من الآثار الشعرية سوى هذه القصيدة التي تقع في ما يقارب ستة بيت .

اسطورة النفس :

كان للشاعر المتصوف بعض الالام في مذاهب الفلسفه العرب . ولكننا نكاد لا نتبين ثقافة عربية او اجنبية عامة شاملة كما تبينا ذلك عند ابن عربي

وَجَرْدَتْ فِي التَّجْرِيدِ عَزْمِي تَرْهَدَأ وَآثَرَتْ فِي النَّسْكِ اسْتِجَابَةً دُعَوَّى (١)

ثم ان هذا المتصوف — كسواه من الفلسفه والمفكرين العرب — لم يتأثر على فكره واحدة لتشيل الله . فإذا به يزعم تارة ان حبيبه الذي جاهد للوصول اليه هو مخلوق ثان جميل بلصق به جميع الصفات الحسنة ، كما نرى ذلك عند معظم المتصوفين الذين حافظوا على الابيان السفي في قلوبهم فتمثلو الله كما وصفه علماء الكلام . وبذهب تارة اخرى الى اعتناق وحدة الوجود كارأينا ذلك جلياً في المقاطم التي انتهدهنا بها . فالروح الصوفية التي نستأنها من مجموعة شعره مختلف باختلاف القصائد . فهو في بعضها مطهئ النفس بذكرا في الشعر ما يذكره مؤرخو التصوف في النثر ، امين على دينه ، لا يحرمه في فكره مبتطرة ولا قول حلولي ولا مذهب فلسي ، وهو في البعض الآخر عموم الطيال لا يراعي اصول الدين . وقد جمع بين هذين النفيين في «نظم السلوك» وجعل فيها كل ما مادر منه من ميزات شخصية . وقد رأينا ابا النداء لا يذكر له من الآثار الشعرية سوى هذه القصيدة التي تقع في ما يقارب صيغة بيت .

اسطورة النفس :

كان للشاعر المتصوف بعض الالام في مذاهب الفلسفه العرب . ولكتنا نكاد لا نتبين ثقافة عربية او اجنبية عامة شاملة كما تبينا ذلك عند ابن عربي

هذا الحدث عندما يعرض لامر النفس . فهو قد سمع شيئاً عن رأي القدماء والمحدثين في القوة الموحية التي ندعوها الروح ، وسمع كلاماً ينسب إلى افلاطون والشيخ الرومي والمعلم الثاني والشيخ الرئيس ، فعرض لها في أحد مقاطع قصيده الكبرى حيث يذكر النسخ والمسخ والفسخ والرسخ ، ويشارك الحكماء القدامى رأيهم في اسطورة النفس . هي قدية خالدة كانت في العالم العقلي ، ثم هبطة إلى الأرض . فإذا أعنها بطرق الصوفية فانها تتذكرة المعرفة التي تلقتها في العالم الأول فتتصبّع عارفة بما مخفى في الأزمان الغابرة وما بها يكون في المستقبل . اذا فالروح قدية ناسية ، والتوصوف بذلك لها المعرفة وبعدها للخلاص من الامر والرجوع إلى مقرها الأول :

ومن قائل بالنسخ والنسخ واقع به ابرأ وكن عما يراه بعزلة
ودعه ودعوي الفسخ والرسخ لائق به ابد لواصح في كل دورة (١)

ويقول :

... تجلت لها بالغيب في شكل عالم

هداهـا إلـى فـهم المعـانـي الغـرـيبة

وقد طبعت فيها العلوم وأعلمت

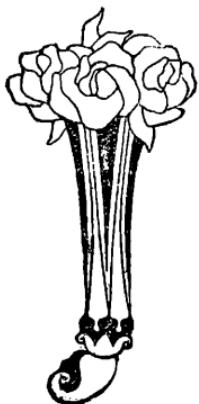
باسمـها قدـ ما بـوـحـيـ الـأـبـوـةـ .. (٢)

وبين هذا الرأي وما ذهب إليه ابن عربي اختلاف كبير من حيث

(١) د ص ٩٠

(٢) د ص ٩١

الوضوح والبيان والتعميل الشعري . فان اسطورة النفس من الماضي مع
الرئيسية التي اوحت الى مفكري الاسلام بابلغ الصفحات واروع الرسائل
والقصائد . هي اسطورة واحدة يتناقلها الحكماء ويخرجونها في ثوب لفظي
شخصي . فعرض لها ابن سينا في القصيدة العينية وفي رسالة الطير – اذا صحت
نسبتها اليه – ووضع ابو حامد الغزالي رسالة أخرى على لسان الطيور المقيدة
التي تنشد الخلاص والحرية . والب ابن عري في اسطورتها الكتب والرسائل
والقصائد . ولكن ابن الفارض لم يعرض لها الا في قليل من الكلام ، وفي
كثير من الغموض . وقد مثل الشيخ الرئيس احسن تمثيل اصلها وسقوطها
ووقوعها في الشرك ومحاولاتها الخلاص . فـ كـ أـ نـهـ بـذـلـكـ يـعـبرـ عـنـ خـواـطـرـ
المتصوفين الذين يعتقدون هذا الرأي في النفس .



تصويبات

وقع في طبع هذا البحث أخطاء مطبعية عديدة لم نشر في هذا الجدول الا إلى أهمها . فالرجاء من القاريء ان يتداركها في مجلتها :

خطأ	صفحة	سطر	صواب
الانساب	١٢	٤	الانساب
بتعميدها	٢٦	٢٢	بتعميدها
الحدث	٤٨	١٧	الحدث
الدفعة	٥١	١٦	الدفعة
Siddharta	٦١	١١	Siddharat
Suddhodana	٦٤	٥	Suddhodare
العام	٦٩	٦	العام
قتل كل ذي نفس	٦٩	٩	قتل نفس ذي كل
ي = ١٠	٧٨	١١	ي = ٤٠
للتتجدد	٨٩	٧	للتتجدد
زائدة	٩٧	٩	منها
ان على	١٠٥	١٠	على ان
على	١١٨	١١	من
بحر	١٢٣	٧	نهر
زائدة	١٢٧	٩	لي

خطأ	صفحة	سطر	صواب
الجريتين	١٢٨	٥	الحبرتين
في	١٤٤	١	بي
الجيولية	١٤٤	١٧	الحلولية
الحب	١٥٧	١٣	الحق
واحدة	١٦٤	٨	واحدا
من	١٦٨	٧	ما



سلسلة مطبوعات [الأهلية]